التحفة

إميل زولا

روايات الهلال

روائع القصص العالمي



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر أغسطس 2018 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٩٦ * ابريل ١٩٦٥ * ذو الحجة ١٣٨٤
No. 196 — Avril 1965

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

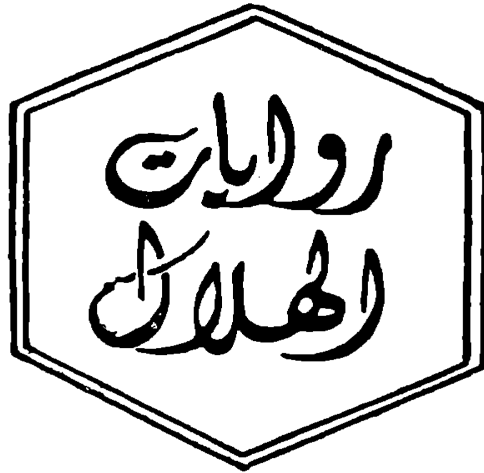
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا ـ فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا ـ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ـ وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة .

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٣٢ آنة ، ليبيا : بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة: دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الخوفة

بقلم

اميل زولا

مؤلف الرواية

ولد أميل زولا فى باريس سنة ١٨٤٠ لاب مهندس ايطالى الاصل ، بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليل المال ، وولد بأنف افطس ، وملامح بعيدة عن الجمال ... ولسان ناقص لا يحسن نطق الزاى ، فكان الصبيان فى المدرسة يتندرون عليه بسؤاله عن اسمه فيقول « ثولا » وعندئذ يضجون بالضحك ! .. ويجرى هو خلفهم ليضربهم ، فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات أبوه وهو طفل ، فاضطرت أمه الشجاعة ان تحترف غسل الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراسة .. بيد أنه كان تلميذا متخلفا ، شغوفا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الادب الفرنسى بالذات ، لانه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما

ولم يكن هناك مناص من أن يهجر مقاعد الدرس ، ليبحث عن عمل .. فعطف عليه بعض ذوى المروءة وعينوه كاتب حسابات فى بعض المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليل فى عد الارقام ليقبض مرتبا يقتات منه هو وأمه قوت الكفاف . بيد أن روحه الشاعرة ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ، تاركا هذا العمل البغيض الى أن قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات الكبرى فعينه .. بائعا .. فكان أبلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس النظر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ونقدا سريعا لها فى دفتر مذكراته .. الى أن ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا أنه وجد فى تلك التعليقات براعة أدبية وألمعية فرقاه محررا للاعلانات

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق الى معبوده : القلم .. ولـــو لكتابة الاعلانات عن الكتب .. ولكنها كتابة على كل حال ، وعن الكتب بالذات .. فأشرقت نفسه بالامل ، وصار يخالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصيرة ، نشرها فيما بعد باسم « أقاصيص الى نبتون » .. فكانت الخطوة الاولى نحو المجد السابغ ، الذى تألقت فيـــه درره اللامعة : « الوحش الادمى » و « البيت المتـــداعى » و « نانا » و « تريزا » و « صفحة حب »

واميل زولا ، مشـــهور عنه أنه لا يعرف فى الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والاكل ! . فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق ، لينتقى الطيور بنفسه ، يشتريها بعد أن يتأكد من أنها سمينة ! ثم يهتم بالاصناف التى يجب أن تقدم له ، ويأكل منها بافراط ! .

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٢ ، أشعل مدفأته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل فى تدبيج المقالات والقصص .. فوجدوه فى الصباح مختنقا بغاز المدفأة ! .. وقد أحرقت جثته ، ورمادهـــا موجود الان فى مقبرة العظماء بالحى اللاتينى بباريس .



شخصيات الرواية

كلود لانتيير :	Claude Lantier	رسام شاب
كريستين :	Christine	زوجة كلود
فاجيرول :	Fagerrol	فنان ناجح
جانيير	Gagnier	رسام فاشل
مالدراس	Maldras	تاجر فى الوسط الفنى
نوديث :	Naudet	تاجر فى الوسط الفنى
جورى :	gory	صحفى وناقد فنى
ماتيلدا :	Mathilda	زوجة جورى
بيير ساندوز :	Pierre Sandoz	أديب
بوجراند :	Bougrand	استاذ فى فن الرسم
دوباك :	Dubucke	مهندس معمارى
جاك :	Jacques	ابن كلود
ماهو ديو :	Mahoudeau	مثال
مارجيلان :	Marguillan	مدير شركة معمارية
ايرما بيكو :	Irma Beceau	أحدى غانيات باريس



الفصل الأول

لقــاء فى الليــل

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حينما اجتاحت العاصفة الممطرة مدينة باريس .. وكان « كلود » الرسام الشاب يطوى طريقه للعودة الى مسكنه الذى كان فى نفس الوقت مرسما لفنه .. وقـد أمضى سهرته كالمعتاد مع جماعة من أصدقائه الفنانين والادباء الذين كانوا يسمون انفسهم « العصابة » ..!

وأسرع الشاب الخطى ليصل الى المرســم القائم فى مخزن خلفى بفندق « دى مارتوى » . وكانت المسافة بينه وبين الجانب الخلفى من الفندق غير بعيدة .. ومن ثم ما لبث ان وصل الى البـــاب الحديدى الصدىء وهو لا يكاد يبصر الطريق بسبب هطول المطــر الغزير . وفيما هو يمد يده ليقرع الباب ، اذا به يجفل فى دهشة حين اصطدمت قدمه بمخلوق آدمى مكوم على نفســه فى ركن من الباب ..

ولمع البرق فى لحظة خاطفة .. ولكنها كانت كافية لان يرى فبها سمت فتاة شابة فى ملابس سوداء مشبعة بماء المطر ترتعد من البرد .. ومن الخوف ..!

وقصف الرعد .. وجفل الاثنان معا ..

وقال « كلود » بصوت مرتفع حتى يجعله مسموعا :

ـ عجبا !.. من أنت !.. وماذا تفعلين هنا ؟

ورغم أنه لم يكن فى مقدوره أن يراها ، الا أنه سمعها تقول وهى تشهق بالبكاء :

ـ أوه .. سيدى .. أتوسل اليك .. دعنى وشـــأنى .. انه

.. انه الحوذى الذى استأجرت مركبته فى المحطة .. تركنى هنا بجوار هذا الباب . القى بى من المركبة .. لقد تعطل القطار بالقرب من نيفيرز بسبب حادث على القضبان .. ووصلت باريس متأخرة عن الموعد اربع ساعات . وهكذا .. وهكذا لم .. لم أجد الشخص الذى كان ينتظرنى بالمحطة . وانا الان لا ادرى الى أين أذهب .. فهذه أول مرة أحضر فيها الى باريس . بل اننى يا سيدى .. لا أعرف أين أنا الان ..!

وتوقفت عن الحديث .. ولمع البرق مرة أخرى .. واستطاع « كلود » ان يرى لمحات من وجهها الشاحب المفزع الذى ذكره بوجه حيوان صغير خائف من شيء لا يعرفه . ورغم هذا فقد قال لنفسه : « لاشك أنها من فتيات الليل التعسات اللاتى لا يجدن مكانا للمبيت ، فهن يحاولن اصطياد أى رجل عابر ليؤويهن » ..

وقصف الرعد مرة اخرى .. ورأى « كلود » الفتاة تزداد انكماشا على نفسها ، فقال لها :

ــ ولكنك لا تستطيعين قضاء الليل هنا ..

فقالت الفتاة متلعثمة وقد عادت تبكى :

ــ أرجوك يا سيدى أن تأخذنى الى ضاحية باسى .. فقد كنت ذاهبة اليها .. أرجوك أن تأخذنى الى باسى ..

فهز « كلود » كتفيه وقال لنفسه : « يبدو أن هذه الفتاة تحسبنى مغفلا » .. ثم مد البصر الى موقف المركبات المأجورة ، فلم ير بصيصا من ضوء ينبىء عن وجود مركبة واحدة ، واخيرا قال فى تهكم :

ــ ضاحية باسى يا عزيزتى ؟.. ولماذا لا اخذك الى قصر فرساى ، ثم من اين لنا بحق الشيطان ان نجد مركبة فى مثل هذا الجو العاصف ، وفى مثل هذه الساعة من الليل ؟ !

فندت عنها صيحة خوف عندما لمع البرق وقصف الرعد مرة اخرى ، وجحظت عيناها بالفزع وقد بدت لها مبانى المدينة كأنها اشباح رهيبة توشك ان تنقض عليها .. واخيرا قالت مولولة :

ــ اننى لا احتمل هذا .. لا احتمل هذا .. ماذا يمكننى ان أفعل ؟

وعاد المطر ينهمر بغزارة ، ولم يسع « كلود » الا أن يقول :

ــ تعالى معى الى الداخل .. اننا لا نستطيع ان نبقى هنا حتى الصباح

وكانت ملابس الاثنين فى تلك اللحظة قد امست مشبعة بماء المطر وعلى ضوء المصباح الخافت فى ركن الشارع ، رأى « كلود » ملابس الفتاة وهى ملتصقة بجسدها الصغير المرتعد ، ولم يسعه فى تلك اللحظة الا أن يشعر بالرثاء لها .. انه لم يكن يهتم بالنساء الا كنماذج للوحاته فقط .. ولم يحدث قط منذ بلغ مرحلة الصبا والشباب أن صحب معه فتاة لتقضى الليل فى مرسمه ومسكنه ، ولكن هذه الفتاة أثارت فى قلبه نوازع الاشفاق والرثاء .. انها نفس النوازع التى خامرته ذات ليلة حين رأى كلبا ضالا يرتعد من البرد والمطر ، فحمله الى مرسمه ، ثم أطلقه فى الصباح بعد أن أطعمه وأدفأه .. !

فاذا كان قد اتخذ هذا الموقف من كلب ضال ، أفلا يتخذه من مخلوقة آدمية أيا كانت ظروفها ، وأيا كانت الحقيقة فى أقوالها ؟!

واذا كانت غانية من بنات الليل تريد أن توقع به فى حبائلها ، فانه ليس بالابله الذى يقع فى شرك ساذج كهذا .. وما اسهل عليه أن يجعلها تدرك هذه الحقيقة اذا حاولت العبث معه ..!

وقال لها مرة أخرى بحزم :

ــ هلم الى الداخل .. يمكنك ان تقضى الليل فى مرسمى ..

فجفلت الفتاة ، ورن صوتها بالاستياء والاستنكار وهى تقول :

ــ مرسمك ؟! لا .. لا استطيع .. أرجوك أن تأخذنى الى باسى .. يجب أن أذهب الى باسى بأية وسيلة .. ألا تسمح أن تأخذنى الى باسى .. أتوسل اليك .. !

وهنا فقد « كلود » السيطرة على زمام أعصابه .. لماذا يقف كل هذه المدة فى المطر من أجل فتاة غريبة ترفض المأوى الذى يعرضه عليها . لقد قرع الباب مرتين ، وفتح ، وعادت حارسة الباب الى كوخها احتماء من البرد والمطر .. فهل يبقى طيلة الليل واقفا على هذا النحو من أجل فتاة غريبة لا تريد ان تنصرف ، ولا تريد ان تدخل معه !!

ولم يسعه الا أن يدفع بها داخل الباب .. ولكن الفتاة عادت تقول باكية :

ــ لا .. لا .. أرجوك .. لا أستطيع حقا .

ومرة أخرى لمع البرق وقصف الرعد ، فوثبت الفتاة ، تلقائيا ، الى الداخل . وتحرك الباب الثقيل وراءها وأغلق ، ووجدت نفسها في ظلام حالك ..

وقال « كلود » لحارسة الباب التى سألت عن الداخل :

ـ انني « كلود » يا مدام « جوزيف » ..

ثم همس للفتاة قائلا :

ـ أمسكى بالسياج وانت تصعدين الدرجات .. فان بعضها مهدم ومن الممكن أن تتعثرى أثناء الصعود ..

وظل الاثنان يصعدان فى الظلام مجموعة بعد أخرى من الدرجات حتى خيل للفتاة أن عملية الصعود لن تنتهى .. والخيرا همس لها « كلود » :

ـ انتظرى هنا حتى أفتح الباب وأوقد المصباح ..

وسمعته وهو يخرج حلقة مفاتيحه ، ثم وهو يفتح بابا .. ووقفت لاهثة الانفاس ترتعد من الخوف اكثر مما ترتعد من البرد .. ولم تلبث أن رأت بصيصا من الضوء أمامها ..

وسمعت « كلود » يقول لها :

ـ يمكنك ان تدخلى الان ..

ودخلت تتلفت حولها .. ولكنها لم تستطع أن تحدد معالم شىء فى ضوء شمعة واحدة موقدة فى مخزن ارتفاع سقفه خمسة أمتار ، وملىء بأشياء واشتات غريبة لا تمت بسبب الى الاثاثات أو المفروشات

وعاد البرق يلمع ، والرعد يقصف ، واستطاعت الفتاة أن تلمح مقعدا بجوارها فتهالكت جالسة عليه وقد ازداد وجهها امتقاعا ، وجسمها ارتعادا

وقال لها « كلود » :

ـ ان الجو يزداد سوءا .. ونحن هنا أفضل حالا مما كنا فى عرض الطريق .. أليس كذلك ؟

وأغلق الباب ، وأدار فى قفله المفتاح مرتين . وتمتمت الفتاة قائلة بصوت مختلج :

ـ ان هذا .. ان هذا لا يبدو سكنا !

وحاول « كلود » أن يبتسم وقد شعر بالحرج .. ولكنه راح يتأمل وجه الفتاة ، وذهل حين رأى ما عليه من جمال يكاد يضيء بالنضارة والصبا رغم حالة الفتاة فى تلك اللحظة ..

ولما أدرك أنها ليست صغيرة كما كان يظن ، وأنها لا تقل عن عشرين عاما .. جمع نفسه وبدأ يلتزم جانب الحذر حتى لا يسمح لها بأيقاعه فى الشرك الذى كان واثقا انها تنصبه له رغم تظاهرها بالخوف والذهول • وقرر أن يجعلها تدرك خطأها اذا كان فى نيتهاأن توقع به .. ومن ثم قال بلهجة خشنة :

ـ هلم الى النوم .. فليس أفضل من السرير فى ظروف كهذه ..

وانتصبت واقفة مرة أخرى وقد ازدادت فزعا .. وكانت فى تلك اللحظات تتأمل ـ دون أن تنظر اليه مباشرة ـ ذلك الشاب الملتحى الوسيم ذا الجسم الكبير ، والتقاطيع الصارمة ، والوجه الذى لا يعرف معنى الابتسام .. وكان معطفه الكالح مشبعا بالمطر الى حد ان أخذت القطرات تتساقط منه وتصنع بركة صغيرة حول قدميه ..

وقالت له فى النهاية :

ـ شكرا لك .. يمكننى أن أنام كما أنا .. بملابسى هذه ..

ـ أتنامين فى ملابسك هذه المبللة الى آخرها ؟.. لا تكونى حمقاء .. اخلعيها واندسى فى الفراش ..

ودفع بقدمه مقعدا أو مقعدين عن طريقه ، ثم أزاح بعنف ستارا يفصل المرسم الى جزئين .. وكشف بذلك عن حوض صغير ، وسرير صغير .. وازدادت نبرات الخوف فى صوت الفتاة وهى تقول :

ـ لا ياسيدى .. أرجوك .. لا تحفل بشأنى .. اننى مستريحة هكذا »

واستشاط « كلود » غضبا ، وصاح بها مزمجرا :

ـ لاداعى لان تتمادى فى اصطناع البلاهة ! اننى أقدم لك سريرى الوحيد . فماذا تريدين اكثر من هذا ؟.. دعيك من هذا التمثيل ، فأنا لست بالاحمق الغرير ، ولن أدع نفسى لعبة بين يديك ! .. أتفهمين ! .. اننى لست من صيادى النساء ! .. ولسوف أنام على هذه الاريكة ..

وخيل الى الفتاة أنه ـ فى ثورته العارمة ـ يوشك ان يضربها ،

ومن ثم تراخت فى مسلكها ، واطرقت برأسها ، وخلعت قبعتهــــا ، وفكت ازارها الخارجى ..

وأسرع هو وانتزع مفروشات السرير والقى بها على الاريكة فى عنف ، ثم أخرج من درج الخزانة ، مفروشات أخرى نظيفة ، وراح يضعها على السرير ببراعة الاعزب الذى اعتاد القيام على خدمة نفسه سنوات طويلة ..

وقال لها فى النهاية :

ـ هاهو ذا السرير معد .. تقدمى ..

وبعد برهة من التردد ، تقدمت نحو السرير .. وأســــدل هو الستار الفاصل بين جزأى المرسم ، وراح يخلع ملابسه ويلقى بها على أقرب مقعد ، ثم اندس بين الاغطية على الاريكة ، وأطفأ الشمعة ، وظل يرهف السمع .. وأخيرا سمع حفيف الملابس وهى تخلع عن الفتاة .. ثم صرير السرير حين ألقت بنفسها عليه ، وعندئذ قال لها :

ـ هل أنت بخير يا آنسة ؟!

وسمعها تهمس بصوت خافت من فرط الانفعال :

ـ نعم ياسيدى .. شكرا ..

ـ طابت ليلتك اذن ..

ـ طابت ليلتك ياسيدى ..

***

وظل « كلود » مؤرقا لحظات طويلة يفكر فى هذه الفتاة التى التقى بها على هذا النحو العجيب !.. ترى هل هى صادقة ؟.. هل هى فتاة من الريف الفرنسى جاءت لاول مرة الى باريس ، فلم تجد أحدا فى انتظارها ؟ أم تراها غانية من بنات الليـــل أرادت أن تجد مكانا للمبيت .. أى مكان ؟!

وهز كتفيه ولم يلبث أن استغرق فى نوم عميق ..

أما فى الجانب الاخر من الفراش ، فقد ظلت الفتـــاة متوترة الاعصاب ، لا يغمض لها جفن ، بسبب شعورها بالارهاق بعد تلك الرحلة الطويلة من جهة ، وبسبب وجودها فى هذا المكان الغريب الذى لم تتصور يوما أنها ستقضى فيه ليلة من عمرها ..

وظلت على هذه الحال من التوتر والقلق حتى تراخت عضلاتها عند اقتراب الفجر ، فتنفست أخيرا بعمق ، واستسلمت للنوم العميق ..

ولما استيقظ « كلود » فى الصباح ، وجد أنه عاجز عن فتح عينيه، لان الشمس كانت قد ارتفعت الى سمت الضحى ، وأرسلت ضوءها الباهر من نافذة المخزن العليا ، فأضاءت المكان بنور ساطع وهاج ، وكان « كلود » قد اختار هذا المخزن الباهر الضوء ليرسم فيه لوحاته على المذهب الجديد الذى كان أول من نادى به فى باريس .. مذهب « الرسم من الطبيعة » . ورغم أن عمالقة الفن فى عصره كانوا يسخرون من هذا المذهب ، الا أنه ظل مؤمنا به رغم كل ما كان يلقاه من عنت وجحود ..

وتلفت حوله والنوم لايزال فى عينيه .. ولاحظ كومة الملابس النسائية الملقاة وراء الستارة .. وهنا تذكر الفتاة ، وراح يرهف السمع .. ولم يلبث أن سمع أنفاسها المنتظمة التى تنم عن استغراقها فى النوم ..

وجلس فى فراشه يحك قدميه ويشعر بالاستياء لان وجود هذه الفتاة فى مرسمه سوف يعطله عن عمله فى ذلك اليوم . ولم يدر ماذا يفعل .. ان قلبه لا يطاوعه أن يوقظها ويطلب منها الرحيل .. ولكن ماذا عساه أن يفعل ؟!

وهز كتفيه ، ونهض عن الاريكة ، وتناول سراويله فارتداها ، وارتدى قميصه ، وكان يتحرك على أطراف قدميه حتى لا يزعج الفتاة فى نومها ، وقرر أن يبدأ عمله فى المرسم حتى تستيقظ من تلقاء نفسها ، ثم يتناول معها الافطار ، ويرسلها الى حال سبيلها ..

وحانت منه نظرة الى كومة ملابسها ، فرآها ملقاة فيما يشبه البركة الصغيرة ، فقطب جبينه وقال لنفسه : كيف يمكنها أن تخرج فى مثل هذه الملابس المبللة .. ؟!

وكانت الساعة تدق العاشرة صباحا حين ركع على يديه وركبتيه وراح يجذب الملابس النسائية من وراء الستار ويبسطها على ظهور المقاعد فى الشمس . والتقط فى النهاية جوربها .. وكان رماديا ناعم الملمس طويلا .. وراح يتأمله برهة قبل إن يبسطه ليجف ..

وتلفت حوله فى ارتياح رغم حالة الاضطراب والفوضى التى كانت تشيع فى المرسم .. لوحات مختلفة من السقف الى الارض ، ومقاعد، وحوامل للرسم ، وانابيب ألوان ، وعلب فارغة ، وبقايا طعـــــام ، وقصاصات أوراق ، ونفايات من كل لون وصنف ..

وفى خلال قيامه بهذه الاعمال البسيطة ، كان يشعر برغبة طاغية لكى يختلس نظرة من وراء الستار الى الفتاة النائمة .. وظل يقاوم هذه الرغبة حتى تغلب عليها حين أمسك بفرشاة الرسم وبدأ يستعد للعمل .. وفى تلك اللحظة سمع همهمة الفتاة وتقلبها فى الفراش ، فترك الفرشاة ، وتقدم بخطوات مختلسة الى الستار ، وراح ينظر بفضول الى الفتاة التى كانت مستغرقة فى النوم ..

وكاد يتراجع من فرط الدهشـــة والذهول عند النظرة الاولى ، ولكنه تمالك نفسه وهو يتمتم بأنفاس لاهثة :

— يا الهى الرحيم ! ..



الفصل الثانى

الجسـد العـذرى

كانت الفتاة النائمة قد أزاحت الغطاء عن جسدها كله بسبب الجو الخانق فى المخزن ، ولا سيما بعد أن أخذت شمس الصباح تسكب ضوءها فى جوانبه . وكانت ـ بسبب شعورها بالارهاق فى اليوم السابق ـ لا تزال مستغرقة فى نوم عميق بحيث بدت ، وهى راقدة فى ضوء النهار ، عادية تماما كأنها تمثال جميل ، ليس فيه من سمات الحياة الا أنفاس خفيفة تتردد ..

كانت بشرتها تبدو فى الضوء الساطع ذهبية مشربة بالحمرة ، ناعمة كالمخمل ·· وكان نهداها بارزين ، نافرين ·· وكان رأسها على الوسادة معتمدا على ذراعها المطوية تحتها ، مما جعل النهدين يبدوان أكثر بروزا وفتنة ··

وعاد « كلود » يتمتم وهو يتشرب بنظراته الوجه المكلل بخصلات من الشعر الذهبى ، والجسم المخملى السابح فى الضوء ، والعنق الذى كان يبدو ـ من فرط صفائه ـ كأن الدماء تشف وهى تجرى فى عروقه ، والانف الجميل الصغير ، والشفتين الممتلئتين المدممتين فى لون الكريز ..

ـ يا الهى .. انها الجمال المجسم ! .. انها الصبا والنضارة .. انها النموذج الذى طالما تمنيت العثور عليه لارسمه ·· عجبا ! كيف استطاعت ان تخفى هذا كله فى الليلة الماضية .. ؟ ! وكيف عجزت عن اكتشاف هذا الجمال رغم الملابس التى كانت تستره ؟ .. انها اكتشاف رائع .. لا شك فى هذا .. !

وسرعان ما اختطف علبة ألوانه الطباشيرية ولوحة من الورق ، ثم

جلس على مقعد خفيض ، وراح يرسم وهو أشد ما يكون احساسا بالسعادة والرضى . لقد تراجعت كل نوازع فضوله واضطرابه أمام رغبته العارمة لرسم هذا الجسد الرائع السابح فى فيض من الضوء، المجسم بخطوط من الجمال ، النابض بالحياة رغم سكون النوم !

لقد نسى الفتاة نفسها وهو منفعل بالنظر الى بشرتها الذهبية ، والى نهديها البارزين ، والى كتفيها المستديرتين فى جمال مذهل . وقد بلغ من انفعاله بكل هذا الجمال الطبيعى أن جلس ــ كالطفل الصغير ــ أمامه مؤدبا ، خاشعا ، مذهولا .. !

وظل مستغرقا فى الرسم نحو ربع ساعة ، كان يختلس خلاله النظر بعينين نصف مغمضتين الى الجسد العذرى الذى حاول أن يسجله فى لوحته فى رسم تخطيطى مؤقت . وكان فى أعماق نفسه يشعر انه أخطأ حين ظن أن الفتاة من بنات الهوى .. ان مثل هذا الجسد يكاد يصيح احتجاجا على هذا الظن ! .. انه جسد عذرى .. لم تلمسه يد رجل .. !

وفجأة سرت تحت البشرة الذهبية المخملية تموجات خفيفة ، وكأن الفتاة شعرت ــ رغم نومها ــ أن جسدها معرض لنظرات رجل . ولم تلبث أن فتحت عينيها تماما ، ثم ارسلت صيحة خافتة تنم عن الخوف . وظلت برهة فى ذهول لا تقوى على الحركة ، وكأنما تحاول أن تستجمع شتات أفكارها لتعرف لماذا هى راقدة هكذا ، ولماذا يحملق فيها هذا الشاب على هذا النحو .. ومن جاء بها الى هذا المكان الغريب .. !

وبحركة سريعة ، مدت يديها ، وسحبت الغطاء على جسدها العارى حتى أسفل الذقن ، وظلت متشبثة به كأنما تخشى أن ترفعه عنها أيد خفية .

وهنا صاح « كلود » فى دهشة وقطعة الطباشير الملونة بين أصابعه:

ــ ما هذا ؟ .. ماذا جرى ؟ ! ..

ولم تتفوه بكلمة ، ولم تتحرك .. وانما ظلت فى مكانها متشبثة بأطراف الغطاء ، تحملق فيه بعينين امتزجت فيهما نوازع الخوف والذهول والدهشة والحذر .. وأخيرا عاد يقول :

ــ لا تنزعجى .. اننى لن آكلك .. لماذا لا تتكرمين وتعودين الى

وضعك الذى كنت عليه ؟ !

واضطرم وجهها مرة أخرى وتمتمت قائلة :

ــ لا .. لا .. لا أستطيع ..

وبدا له أن عنادها لا معنى له ، ومن ثم صاح غاضبا :

ــ ما هو الفرق الآن ؟ .. لقد رأيتك عارية تماما .. ومادمت قد رأيتك مرة ، فمن الممكن أن أراك عشرات المرات .. انك لست أول فتاة أو امرأة أراها عارية لأرسمها ..

ولما انفجرت باكية ، ازدادت ثورته حين خشى أن يحرم من اتمام هذه اللوحة التى كان يعتبرها من أجمل ما رسمه فى حياته . ومن ثم عاد يقول بصوت ثائر :

ــ اذن فأنت تصرين على الرفض ؟ .. ما معنى هذه الحماقة ؟.. هل حاولت ان المسك بأصبعى ؟ .. لو كنت أريد العبث بك ،لانتهزت فرصة نومك وعجزك وفعلت ما يحلو لى .. ولكننى لست من هؤلاء الرجال الذين ينظرون الى المرأة من الناحية الجنسية ؟ .. اننى انظر اليها من الناحية الجمالية فقط .. ثم لا تنسى أننى أديت لك خدمة .. التقطتك من الطريق فى ليلة عاصفة .. ألا يمكنك أن تكافئينى عنها ؟

ولما ظلت سادرة فى بكائها وقد أخفت وجهها فى الوسادة ، عاد يقول :

ــ لولا أن الامر على جانب كبير من الاهمية لى ، لما ألححت عليك..

ودهش حين وجدها تبكى بمرارة بالغة .. ومن ثم بدأ يشعر بالخجل من خشونته معها . ولما لم يجد ما يقوله ، ظل صامتا برهة، حتى اذا توقفت عن البكاء وهدأت نفسها ، قال بصوت أكثر رقة :

ــ اذا كنت حقا لا تحتملين هذا الوضع ، فلا داعى للمزيد من الحديث عنه .. ولكن لو أنك فقط تدركين أهمية هذا الموضوع بالنسبة لى ! .. ان هناك لوحة كبيرة لم تتم بعد .. وانت النموذج الذى كنت أبحث عنه لأتمم به الرسم .. وأنا لا أتردد فى التضحية بأبى وأمى من أجل الرسم .. هل يمكن أن تفهمى شعور الفنان حين يريد أن يحقق ذاته فى لوحة خالدة ؟ .. ألا يمكن أن تخففى من عنادك وأن تبقى على وضعك الذى كنت عليه لحظات اخرى ! لا داعى



لقد تراجعت كل نوازع فضوله واضطرابه أمام رغبته العارمة لرسم هذا الجسد الرائع ...

للشعور بالحرج أو الحياء .. لقد فرغت من رسم الجسد كله .. ولم يبق غير الرأس .. الرأس فقط .. فهل يمكن أن تضعى ذراعك مطويا تحت رأسك بضع لحظات حتى أفرغ من رسم هذا الجزء الاخير .. ؟ يمكنك أن تسترى كل شيء من جسدك حتى الرقبة ؟ ما رأيك ؟ !

وتراخت عضلات الفتاة قليلا ، ولاح ، التردد على وجهها ، فأسرع يقول :

ـ انك لو فعلت ذلك فسوف أعترف لك بالجميل مدى الحياة ..!

وكانت الفتاة فى خلال هذه الفترة تفكر بسرعة .. انها تستطيع أن تستمر فى الرفض . فماذا ستكون النتيجة ؟ .. انه بدوره يستطيع أن يعبث بها اذا أراد .. انها تحت رحمته . ولو أنها كانت مرتدية ملابسها ، لاختلف الوضع . أما وهى عارية ، فان فى مقدوره أن يغتصبها بسهولة لو أراد .. بل وأن يقتلها أيضا دون أن يدرى بأمرها أحد ..

وهكذا استقر رأيها على ارضائه ، فأزاحت الغطاء عن وجهها ، وجعلته ينتهى عند أسفل العنق ، ووضعت ذراعها مطوية تحت رأسها ، فهتف « كلود » قائلا فى ابتهاج صبيانى :

ـ شكرا يا عزيزتى .. اننى لن أنسى لك هذا الجميل ، وسوف ترحلين اذا شئت بعد لحظات ومعك أطيب تمنياتى لك بالسعادة ..

وانطلق « كلود » كالمجنون .. واستغرق فى عمله استغراقا ضاعف من شعور الفتاة بالامن والهدوء .. فتراخت فى رقتها ، وراحت ترنو الى جوانب المرسم الذى كانت الشمس تضيؤه بنور ساطع فياض .. وهالها ما رأت من سمات الفوضى والاضطراب .. وارتسم على وجهها نون من الفزع وهى ترى اللوحات الكثيرة المعلقة على جدرانه .. لوحات مرسومة بألوان عنيفة ، وبأضواء باهرة ، وبظلال حادة ، وبأسلوب يكاد يكون وحشيا فى نظرها .. !

وشعر « كلود » بالصمت المخيم على المكان ، فرأى أن يسليها بالحديث حتى لا يخامرها الملل ، فقال :

ـ ما اسمك يا عزيزتى .. ؟

ففتحت أجفانها ، وكانت قد أوشكت على النعاس ، وقالت :

ـ كريستين .. !

فقال وقد تذكر أنه لم يذكر لها اسمه منذ الليلة الماضية :

ـ وأنا « كلود » ..

ورآها تضحك كطفلة بريئة وتقول :

ـ عجبا ! « كلود » .. و « كريستين » .. كلا الاسمين يبدأن بحرف واحد !

وبعد برهة من الصمت ، خشى أن يدفعها الملل الى تغيير وضعها ، فقال :

ـ هل الجو حار هنا ؟ ..

فقالت بلهجة جادة رغم المرح المطل من عينيها :

ـ نعم .. الى حد ما ..

ـ انها الشمس .. وليس أروع من ضوء الشمس حين يكسو جسدا جميلا .. لم يكن فى مقدورنا أن نفعل هذا أمس .. أمام الباب !! أليس كذلك .. ؟ !

وضحك الاثنان عندئذ .. وابتهج « كلود » لانه عثر أخيرا على موضوع يصلح للاستطراد فى الحديث .. انه لم يعد يهتم كثيرا بما اذا كانت صادقة فى روايتها أم كاذبة .. كل ما كان يهمه فى تلك اللحظة هو استمرارها فى ذلك الوضع حتى يفرغ من الرسم .. !

وبعبارات بسيطة ، سردت عليه قصتها .. قالت انها تركت بلدتها فى اقليم كليرمونت فى صباح اليوم السابق لكى تصل الى باريس فى الساعة التاسعة مساء . وكانت قد اتفقت للعمل ـ قارئة ـ لدى سيدة كفيفة البصر ، أرملة ضابط كبير ، تدعى مدام « فانزيد » بضاحية باسى . وكان الاتفاق قد تم على أن ترسل اليها هذه السيدة شخصا من اتباعها لينتظرها فى المحطة فى نحو الساعة التاسعة مساء. ولكن قطارها تعطل عند منطقة نيفرز نحو أربع ساعات بسبب انقلاب قطار بضاعة على الخط .. ولما وصلت الى محطة باريس فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، لم تجد أحدا فى انتظارها، ولم يسعها الا أن تستقل مركبة مأجورة وتطلب من السائق أن يمضى بها الى باسى .. ولكن السائق ظن انها من بنات الهوى فحاول أن يعبث بها ، ولكنها استطاعت ـ عند ما انهمر المطر وهبت العاصفة ـ

أن تقفز من المركبة وأن تختبىء منه فى ركن مظلم بجوار الباب الخلفى للفندق ، تاركة وراءها حقيبة سفرها التى لم يكن بها غير طاقم من الملابس المستعملة

وأردفت « كريستين » قائلة :

ـ ولا يمكنك أن تتصور شعورى حين وجدت نفسى وحيـــدة فى مدينة كبيرة مثل باريس ، مكومة تحت وابل المطر بجوار باب حديدى .. وأخذت أفكر فى منظرى عندما تسطع الشمس فى اليوم التالى .. ماذا أفعل ؟ .. والى أين أذهب وأنا لا أملك شيئا !

وقال « كلود » حتى لا يتوقف الحديث :

ـ لاشك أن والديك سيشعران بالقلق حين يعلمان بتأخر القطار عن الوصول فى موعده أربع ساعات ..

فهزت رأسها قليلا وقالت :

ـ ليس لى والدان .. !

ـ لا أب .. ولا أم ؟ ! أتعنين أنك وحيدة فى هذا العالم ؟

ـ نعم ...

ثم قالت انها الان فى الثامنة عشرة من عمـــرها ، وأنها من بلدة ستراسبورج ، وكان والدها ضابطا ولكنه مات وهى فى الرابعة عشرة من العمر ، وحاولت أمها أن تحافظ على مســـتوى معيشتهما .. فراحت ترسم الزخارف الجميلة على مراوح الســـيدات وتبيعها ، وظلت على هذه الحال حتى ماتت بعد زوجها بعامين ، تاركة « كريستين » وحيدة فى الحياة الا من رئيسة دير للراهبات ، كانت صـــديقة للام . والحقتها رئيسة الدير بمدرسة الراهبات حتى بلغت الثامنة عشرة ، ثم ظفرت لها بعمل لدى مدام « فانزيد » المكفوفة ، لتكون وصيفتها الخاصة ، وقارئة لها ..

ولما خيم الصمت مرة أخرى ، قال « كلود » ليواصل الحديث :

ـ وهل كليرمونت بلد جميلة ؟ ! ..

ـ لا أعرف تماما .. لاننى لم أر بلادا غيرها حتى اســـتطيع المقارنة ..

ثم أردفت قائلة بصوت متهدج بالبكاء :

ـ كانت أمى ضعيفة الصـــحة ، وقد ماتت من فرط الارهاق فى

العمل .. كانت تدللنى وتحاول أن تسعدنى بقدر ما تستطيع . وقد عهدت بى الى مدرسين خصوصيين لتعليمى ، ولكننى لم أتعلم شيئا غير القراءة والكتابة وبعض الرسم بالالوان المائية ..

ـ الرسم بالالوان المائية ؟ !

ـ نعم .. كانت أمى بارعة جدا فى الرسم . وقد علمتنى شيئا منه . وكنت أساعدها فى زخرفة المراوح ..

ثم راحت ـ بحكم الغريزة ـ ترسل نظرات ملؤها الرهبة الى اللوحات المعلقة ذات الالوان الصارخة ، والخطوط الوحشية الغريبة على ذهنها وعلى مفهومها التقليدى فى فن الرسم ..

ولما طال الصمت بعد ذلك ، كان « كلود » قد فرغ من عمله وشعر أنه أرهق الفتاة أكثر مما ينبغى ، فوضع الالوان جانبا وقال بلهجة الاعتذار :

ـ اننى اسف لما سببته لك من ازعاج يا آنسة « كريستين » .. وشكرا لاستجابتك لرجائى .. لقد فرغت الان ، ويمكنك أن تنهضى وترتدى ملابسك لترحلى بسلام الى ضاحية باسى ..

ثم اسدل الستار على الجزء الخاص بالسرير ، ودفع بالمقعد الذى جفت عليه ملابسها ، وراح يشغل نفسه بتنظيف فرشه وعلب ألوانه ، وأخيرا سمعها تقول :

ـ هل تسمح تناولنى جوربى يا سيدى ..

فقذف لها بجوربها من فوق الستار ، وقال :

ـ عندك الصابونة على الحوض .. وفى درج الخزانة منشفة نظيفة يمكنك استعمالها ..

وبعد لحظات فوجىء بها تخرج من وراء الستار فى كامل ملابسها . ووقف يحملق فيها بذهول وقد بدت أمامه فتاة أنيقة أبعد ما تكون من فتيات الليل كما ظن فى بادىء الامر ..

وابتسمت له وقد اطمأنت اليه تماما .. واسرع هو يقول :

ـ بدلا من أن تتناولى شيئا من الطعام قبل أن تنصرفى .. يمكننى أن أصنع قدحين من الشيكولاتة فى أقل من خمس دقائق ..

فقالت بصوت رقيق :

ـ .. لا .. شكرا جزيلا .. لا داعى لان تتعب نفسك . ان خزانة

ملابسى الكبيرة لانزال فى غرفة الامانات بالمحطة ، ولابد لى ان أسرع باستلامها ثم أمضى الى باسى فورا .

ولما عجز عن اقناعها بالبقاء لتتناول شيئا من الطعام قال لها :

ـ دعينى على الاقل أهبط معك لابحث لك عن مركبة مأجورة .

ـ لا .. لا .. شكرا .. لا داعى لهذا التعب ..

وعبثا حاول أن يقنعها بالهبوط معها . وأخيرا قال :

ـ حسنا .. اننى لا أريد أن أفرض نفسى عليك .

وراح يحملق فيها وقد خيل اليه انه عاجز عن تحويل عينيه عن وجهها البرىء الفاتن ، ولما نظرت اليه باسمة ، اضطرب وقال :

ـ حسنا .. اعتقد انه لا يمكنك أن تقولى اننى اسأت اليك ؟

فضحكت وقالت :

ـ لا لا .. مطلقا .. بل اننى لا أدرى كيف أشكرك .

ثم تقدمت نحو الباب ، ولما فتحه لها أراد أن يقول « متى سأراك مرة أخرى » ، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية لان يقول هـــذا .. وتوقفت هى برهة عند الباب ، ثم مدت يدها وصافحته بحرارة وهى تبتسم فى عينيه قائلة :

ـ وداعا يا سيدى .. وشكرا مرة أخرى ..

وقال وقد أحس بقلبه يكاد يختنق فى صدره :

ـ وداعا يا آنستى ..

وهبطت درجات السلم مسرعة دون أن تلتفت وراءها .. وأغلق الباب بعنف قائلا لنفسه فى ثورة عارمة :

ـ اللعنة على كل النساء ! ..



الفصل الثالث

العصـــــابة !!

دقت الساعة الواحدة بعد الظهر وكان « كلود » لا يزال يعمل بلا انقطاع فى اللوحة التى اعتزم ان يدخل بها المســابقة الســنوية التى يقيمها « صالون الفن » بباريس ..

وفيما هو يعمل ، سمع طرقا مألوفا على البــاب ، فأسرع واخفى الرسم التخطيطى الذى صور به « كريستين » عارية فى حافظة أوراقه بعد ان كان يحاول استخدامه لرسم صورة المرأة العارية فى لوحته . ثم فتح الباب، واذا صديقه ـ أو أحد أفراد العصابة ـ «بيير ساندوز» يدخــل ..

وكان « بيير » من أصدقاء طفولة « كلود لانتيير » .. وكان ـ مثله ـ فى الثانية والعشرين من العمر ، خمرى البشرة ، مستدير الرأس، مربع الانف ، دقيق العينين ، صغير اللحية ، واضح الذكاء ..

وقال له « كلود » :

ـ افى هذا الوقت ؟! ..

ـ لقد تناولت غدائى ، ورأيت أن أجلس أمامك لتواصل رسمى فى لوحتك أطول مدة ممكنة هذا اليوم ..

ثم ارسل نظرة الى اللوحة الكبيرة التى كان عرضها خمسة امتــار وارتفاعها ثلاثة ، ثم هتف قائلا :

ـ انك تتقدم فيها بسرعة بالغة ..

وكانت اللوحة تمثل منظرا طبيعيا .. ساحة معشبة بجوار غابة كثيفة الشجر .. وفى الساحة رقدت فتاة عارية تماما وأمامها رجــل مرتكز بمرافقه وقد ارتدى جميع ملابسه ، وجهه اليها ، وظهــره

للمتفرج على الصورة .. وعلى بعد يسير من المرأة العارية ، امرأتان أخريان عاريتان ، تتمرغان على العشب فى دعابة ومرح ..

وكان « كلود » يرسم طبقا لاسلوبه الجديد المبتكر فى الرسم .. الالوان الصارخة ، والتركيز فى تدفق الضوء حتى يبدو باهرا ، والعناية برسم الظلال .. ظلال الغابة الخضراء الكثيفة الشجر .. ثم جعل المرأة العارية بؤرة الصورة ، فركز فيها كل ما أراد أن يبرزه من عمل فنى باهر ..

وعاد « ساندوز » يقول :

ــ انك تقدمت كثيرا فى تصوير هذه المرأة .. يبدو أنها ستكون رائعة فى النهاية !

ثم أردف قائلا :

ــ ولكن عليك أن تعمل فى اتمامها ليلا ونهارا ان أردت أن تستكملها فى الموعد المحدد للعرض ..

فقال « كلود » بلهجة الواثق من نفسه :

ــ ان امامنا ستة اشهر .. ويمكن للانسان ان يصنع الشىء الكثير فى مدة كهذه .. ولعلى احرص على اتمامها فى الموعد المحدد هذه المرة حتى أؤكد لنفسى اننى لست مضياعا ..

وراح يصفر بابتهاج خفى .. لقد تذكر الصورة التخطيطية التى رسمها لـ « كريستين » وشعر بفيض من الامل الذى يغرق فيه الفنان أحيانا قبل أن ينحسر ليحل محله فيض من اليأس والشعور بالعجز

وبنفس الروح المرحة ، قال لـ « ساندوز » :

ــ هلم ولا تضيع الوقت .. مادمت قد جئت ، فاجلس امامى حتى أستكمل جانبا من هذا الرجل الاحمق الذى يولينا ظهره فى اللوحة ..

وكان « ساندوز » ــ بدافع من الصداقة ، وليوفر على صاحبه نفقات استئجار نموذج حى للجلوس امامه ــ قد تطوع ليقوم هو بدور النموذج .. ومن ثم كان يأتى كلما وجد وقتا خاليا ليجلس امام صديقه ساعة او أكثر يتبادل معه فيها الحديث رغم جلسته التى يوليه فيها ظهره ..

وفيما هو يرتدى السترة المخملية السوداء التى يرسمه فيها «كلود»

قال فجأة كأنما تذكر شيئا :

ـ اسمع .. لاشك انك لم تتناول غداءك مادمت مستغرقا فى العمل منذ الصباح .. يمكنك ان تذهب وتأكل شيئا ، وسوف انتظـــرك

فقال « كلود » مستنكرا فكرة ضياع لحظة من الوقت :

ـ لقد اكلت طبعا .! أيمكن ان ابقى حتى هذه الساعة بلا طعـــام ؟ ومع هذا فان لدى بقية من خبز الصباح مع قليل من المــربى .. ويمكننى أن أتبلغ بهما اذا شعرت بالجوع .. هلم ..

ـ لسوف يأتى « دوباك » ليأخذنا معه فى الخامسة هذا اليوم ،

ثم أردف قائلا وهو يتبادل ادوات الرسم بكل حماس :

أليس كذلك ؟! ..

ـ نعم .. هكذا قال لى أيضا ..

ـ حسنا .. يمكننا اذن أن نذهب معا ونتناول العشاء عنـــدما يحضر .

هل أنت مستريح فى جلستك الآن « آه » اجعل اليد الى اليســـار قليلا .. وارفع الرأس الى أعلى بعض الشىء « آه » حســـــنا جـــدا ..

وراح الاثنان يثرثران بعض الوقت عن الخطاب الذى جاء الى «كلود» من مدينة بلاسان .. وهى المدينة التى نشآ فيها معا ، وتلقيا فيها معا دروس المرحلة الاولى ، ثم المرحلة الثانوية .. ثم جاءا الى باريس حيث التحق « كلود » بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، والتحـــق « بيير ساندوز » بالسربون ليدرس الصحافة والاداب ..

وأخذ الحديث بينهما يتراخى حتى استغرق كل منهما فى أفكاره الخاصة ، رغم انهماك « كلود » فى العمل بلا توقف ..

كان « كلود » فى التاسعة من عمره عندما مات والده السكير تاركا اياه وامه الارملة ، فى حالة من الفقر المدقع . وشاء حظ الارمـــلة الحسن أن يقع فى غرامها أحد العمال الشرفاء ، فتزوجها .. ولـــم تتخل المقادير عن « كلود » الصغير ، فساقت اليه رجلا ثريا رآه ذات مرة وهو يرسم بطريقة صبيانية فى كراسة الرسم ، فأدرك أن الصبى موهوب فى هذا الفن ، وكان السيد الثرى من هواة جمع اللوحات الفنية فذهب الى الام وطلب منها أن يتبنى الصبى . ولمـــا أتم « كلود »

المرحلة الثانوية ، اذا بالسيد الثرى يموت فجأة ، تاركا له ثروة تقدر بنحو عشرين ألف فرنك ، تدر فى كل عام ألف فرنك . وقد ذكر فى الوصية ان من حق « كلود » أن يأخذ من رأس المال مايشاء بعد بلوغه سن الخامسة والعشرين ..

وأسرع « كلود » الى باريس وهو مطمئن الى أن ايراده السنوى البالغ ألف فرنك ، سيتيح له اتمام دراسته الفنية بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، وكان صديق الطفولة « ساندوز » قد سبقه اليها ، وهناك اخذ الاثنان يحلمان بالمجد .. « ساندوز » كأديب كبير ، و « كلود » كفنان خالد ..

وكان لهما صديق ثالث منذ المرحلة الثانوية يدعى « لويس دوباك » .. وكان سكان مدينة بلاسان يسمونهم « الثلاثة الاوفياء » لانهم كانوا لا ينفصلون أثناء الدراسة أو اللهو أو فى ى مكان عام ..

وكان « بيير ساندوز » ينحدر من والد اسبانى وام فرنسية . وقد مات الوالد فى المنفى ، وأصيبت الام بالفالج .. وراح « ساندوز » بعد أن تخرج فى السربون ، يلتقط رزقه من العمل بالصحافة لينفق على أمه المريضة التى تعيش معه فى باريس ، ولكنه لم يتخل يوما عن آماله فى أن يصبح كاتبا عظيما ..

أما « دوباك » فكان أكبر ابناء رجل خباز من بلاسان . وقد لحق بصديقيه فى بأريس ، والتحق بقسم الهندسة المعمارية بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، وكان والده قد خصص له مبلغا كل شهر لا يتجاوز ستين فرنكا ..

وأفاق كل منهما من ذكرياته عندما قال « ساندوز » فجأة :

— ماذا ستسمى هذه اللوحة يا « كلود » ؟

— « الهواء الطلق » أو « مع الطبيعة » ..

فصمت « ساندوز » برهة ثم قال فى حذر :

— ولكن كلا من هذين الاسمين لا يعنى شيئا محددا .. رجل فى ملابسه ، وأمامه امرأة عارية ، وعلى بعد منهما امرأتان تلعبان على العشب .. لابد أن يكون وراء مثل هذه اللوحة هدف معين ،فهز « كلود » كتفيه وتراجع الى الوراء ليتأمل اللوحة ، ثم قال :

— ليس من الضرورى ان تعنى اللوحة شيئا محددا .. يكفى ان

تثير فى نفس المتفرج أحاسيس مختلفة وانفعالات تدعوه الى التفكير فيها دائما ..

وهنا دقت الساعة تعلن الخامسة ، فبدأ « ساندوز » فى التحرك وهو يقول :

ــ ان لنا أن نمضى لنأكل شيئا .. وها هو ذا « دوباك » قد جاء فى الموعد المحــدد ..

وكان الاثنان قد سمعا طرقات « دوباك » المعروفة على البــاب . ودخل « دوباك » .. وكان شابا متوسط الطول ، حليق الرأس ، غزير الشارب ، تبدو عليه سمات الوقار والجد ..

وصافح الشاب صديقيه بحرارة ، ثم راح يتأمل اللوحة .. وكان قد اعتاد الا يذكر رأيه بصراحة لصديقه « كلود » لان اسلوبه فى الرسم لم يكن يتفق مع مزاج « دوباك » .. ولكنه لم يستطع ان يخفى عن وجهه امارات النفور .. مما جعل « كلود » يقول له متوعدا :

ــ هــنه .. ألا تعجبك ؟!

فأسرع « دوباك » يقول :

ــ لا .. لا .. انها جميلة .. رائعة .. ولكن .

ــ ولكن ماذا !! ..

ــ اننى .. اننى لا استطيع ان افهــم كيف يجلس رجل فى كامل ملابسه مع امرأة عارية تماما فى مكان يمكن ان يمر به اى انســان ..

فأرسل « كلود » ضحكة عالية وقال :

ــ الا يوجد فى متحف اللوفر لوحات من هذا النوع ؟.. ان هــذه اللوحة قد تصدم ذوق الرأى العام .. ولكن هل ينبغى على الفنــان الملهــم أن يخضع للرأى العام ؟!

فهز « دوباك » كتفيه وقال :

ــ ان الرأى العام هو الذى يرفع الفنان الى القمة او يلقى به الى الحضيض ، واعتقد ان الرأى العام سوف ينظر الى هذه اللوحة على أنها شىء شاذ !

فهتف « كلود » ثائرا :

ــ هــكذا أنت دائما يا « دوباك » .. تحب أن تسير على هــدى التقاليد والمنطق .. ان الفنان الموهوب لا يعترف بشىء من هــذا

.. انه ثورة .. انه انقلاب على كل شيء تقليدى منطقى مألوف ..

وتدخل « ساندوز » فى تلك اللحظة قائلا :

ــ أخشى ان يمنعنا هذا الجدل من الخروج فى الوقت المناسب لنتعشى .. هلم ..

فقال « كلود » وهو يتناول أدوات الرسم مرة اخرى :

ــ ارجو الانتظار عشر دقائق .. اريد أن أفرغ من رسم هذا الكتف .. اننى متحمس للعمل .. وهذه فرصة لا تعوض ..

ولما كان الآخران يعلمان أنه لاجدوى من الجدل فى هذا الشأن ، فقد وطنا النفس على البقاء حتى يفرغ « كلود » من عمله . وقال « ساندوز » ل « دوباك » :

ــ هل ستحضر عشاء يوم الخميس يا « دوباك » ؟ ان الباقين سوف يحضرون .. « فاجيرول » ، و « ماهوديد » ، وجانيرو

وكانت « العصابة » كلها تجتمع للعشاء فى مساء كل يوم خميس بمسكن « بيير ساندوز » وهناك يأكلون ويشربون ويتحدثون عن آمالهم فى غزو باريس بنظرياتهم الجديدة فى الفن والادب والهندسة المعمارية ..

وصمت « دوباك » برهة قبل أن يجيب قائلا :

ــ الخميس القادم ؟.. لا أظن .. اننى مدعو الى حفلة راقصة لدى اسرة تعرفت بها حديثا ..

فقال « ساندوز » بلهجة ساخرة :

ــ وبماذا ستخرج من هذه المغامرة الجديدة ؟.. بعروس جميلة وثروة طائلة ؟! ..

ــ من الممكن ان اخرج بأسوأ من هذا ! .. انها فكرة ! ..

وفوجىء الصديقان بثورة « كلود » وهو يصيح :

ــ اللعنة على كل شيء .. اننى أخطأت فى ابراز الضوء الكافى للكتف .. أخطأت مرة أخرى .. اريد الكتف كأنه ينبض بالحياة .. يبدو اننى عاجز تماما .. لا فائدة منى ..

وكاد ــ كعادته فى مثل هذه الظروف ــ ان يضرب قماش اللوحة بقبضة يده ، ولكن « ساندوز » اسرع وأمسك بذراعه وقال :

ــ انك الآن مجهد .. اترك الرسم وهلم نمضى الى العشاء فى الخارج ..

فعاد « كلود » يمزج ألوانه ويقول :

ـ لا .. لابد أولا من استكمال رسم هذه الكتف ..

ولم يسع الصديقان الا أن يجلسا فى صمت .. وفجأة فتح الباب برفق ودخل رجل رث الملابس ، كثيف اللحية ، ماكر النظرات ..

وهتف « ساندوز » حين رآه قائلا :

ـ آوه .. هذا هو صاحبنا « مالجراسى » ..

وكان « مالجراسى » أحد تجار اللوحات الفنية .. ولكنه كان يشترى هذه اللوحات من الفنانين المبتدئين بعد مساومات مرهقة ، ثم يبيعها بسرعة مكتفيا بربح بسيط ..

وقال « مالجراسى » بعد أن تبادل التحية مع الجميع :

ـ كنت مارا فى هذه الناحية ، فرأيت أن أصعد لأرى صديقنا الفنان الملهم « كلود » ..

ثم وقف متمردا ، وراح يتأمل اللوحات المعلقة على الجدار ، وفجأة التمعت نظراته حين وقعت على لوحة امرأة عارية متكئة على جانبها الايسر ..

وبدأ مساوماته قائلا :

ـ اننى لم أستطع ان اتخلص من اللوحتين الاخيرتين بعد يا«كلود» ولكننى لن أرضى عن نفسى اذا خرجت من مرسمك دون أن أشترى منك شيئا .. انك تعرف مدى حبى للفنانين وعطفى عليهم .. لابد ان يعيشوا .. لابد أن يكسبوا من أعمالهم .. لابد أن يجدوا التشجيع من الجميع .. مارأيك فى هذه اللوحة الصغيرة يا «كلود» ؟..

وقال « كلود » دون ان يلتفت اليه :

ـ انها ليست للبيع ..

ـ ماذا تقول ؟ .. أم لعلك تساوم معى ؟! ..

ـ حسنا .. اذا أردت شراءها فادفع عشرين فرنكا .

ـ عشرين فرنكا ؟ .. لاشك انك مجنون.. سأدفع ثمانية فرنكات، فاما ان تقبل أو دعنى انصرف ..!

وألقى « كلود » نظرة ازدراء على وجه « مالجراسى » .. ولكن هذا لم يحفل ، انما قال بلهجة الرجل الذى يصنع الخير فى غير انتظار للجزاء :

ــ هكذا أنتم جميعا .. لاتعترفون بجميل أحد .. ولكنها طبيعة الفنان الملهم ، حسنا .. اننى لن استطيع الخروج دون ان اترك لك بعض المال ياعزيزى « كلود » ..

ثم تناول من جيبه ثلاث ورقات مالية كل ورقة من فئة الخمسة فرنكات ، وقال وهو يضعها على مائدة صغيرة :

ــ هذه خمسة عشر فرنكا .. لاتحاول ان تطلب المزيد .. أقسم لك اننى لن أدفع شيئا فوقها ..

وهز « كلود » كتفيه واومأ برأسه .. وسرعان ما اختطف التاجر اللوحة الصغيرة ، واذا هى تختفى ــ كالسحر ــ داخل معطفه الكبير، وماهى غير لحظات حتى كان قد انصرف سعيدا بالصفقة وقال « ساندوز » فى رجاء لـ « كلود » :

ــ هلم .. يا « كلود » .. ان الشمس قد أوشكت على المغيب، ولم يعد الضوء كافيا لمواصلة الرسم .. ألا ترى ..؟

وكان « كلود » قد لاحظ ان اللوحة بدت له باهتة ، فاقدة الروح، مختلطة الالوان بعد أن خفت الضوء فى جوانب المخزن .. ومن ثم راح يتأملها فى حزن عميق ، وهو يتمتم :

ــ لا .. ليس هذا هو الوجه الذى اريده للمرأة العارية .. اننى عاجز عن رسم التعبيرات النابضة التى أريدها .. اننى عاجز .. عاجز تماما .. اننى لست فنانا .. انكم جميعا تشجعوننى مجاملة..!

وصمت الصديقان فى تلك اللحظة ، لانهما كانا قد اعتادا أن يريا مثل هذه الثورة العارمة تصطرع فى قلب صديقهما « كلود » كلما شعر انه عاجز عن تحقيق مايريده فى هذا الفن . وكانا معا يؤمنان أشد الايمان بعبقريته ، وبأنه الفنان الذى سيبدأ عهدا جديدا فى فن الرسم ..

ولكنهما روعا حين رأياه ينهال بسكين الرسم على رأس المرأة العارية، ويمسحها عن اللوحة تماما وهو يقول :

ــ ان هذا الوجه لا يعجبنى .. فلابد من القضاء عليه..

وخيل الى الصديقين انهما يشهدان جريمة قتل، فأسرعا بالانصراف وانطلقا يهبطان الدرجات بسرعة .. ولكن « كلود » كان قد هدأ ، فألقى بادوات الرسم ، واختطف سترته ، وانطلق وراءهما ..

الفصل الرابع

قُبلة على الجبين

ومرت ستة أسابيع كان « كلود » خلالها قد انتابه اليأس التام من رؤية « كريستين » مرة أخرى .. لقد ظل فى الايام الاولى يتوقع حضورها .. ولما تحولت الايام الى أسابيع ، بدأ اليأس يتسلل الى قلبه حتى استبد به تماما ، وانتهى به الامر أخيرا الى أنه لن يراها ، وأن ماحدث فى تلك الليلة لن يزيد عن مجرد ذكرى عابرة فى حياته ..

وفى ذات يوم من منتصف شهر أغسطس ، كان واقفا أمام لوحته الكبيرة يعمل بعد أن انقطع عن العمل فيها طيلة تلك الاسابيع الستة . وكانت تلك عادته كلما أحس بأنه عاجز عن تحقيق الاهداف التى يريد أن يحققها فى لوحاته .. وبعد أن انغمر مع « العصابة » فى سلسلة من اللهو بحى مونمارتر ، عاد الى اللوحة وقد هدأت نفسه ، واسترد حماسته ..

وسمع طرقا على الباب .. وظن أنها حارسة الباب مدام « جوزيف » جاءت اليه بطعام الغداء ، ومن ثم قال ببساطة :

ـ ادخلى ..

وفتح الباب .. وسمع حركة خفيفة وراءه ، واستمر هو فى الرسم دون ان يلتفت .. ولكنه لم يلبث أن أحس بأنفاس رقيقة على جانب وجهه ، فاستدار مدهوشا .. وتسمر فى مكانه من فرط المفاجأة لقد رأى نفسه وجها لوجه مع « كريستين » ..

وكانت تمسك فى يدها باقة من الزهور ..

وتمالك نفسه فى النهاية ، وهتف قائلا :

ـ أهذه أنت يا آنسة ؟ .. انك آخر من كنت أنتظر رؤيتها !

وابتسمت « كريستين » قائلة :

ـ نعم .. أنا .. لقد رأيت أنه ليس من اللائق أن أختفى هكذا من حياتك دون ان أعود واكرر لك شكرى ..

ثم توقفت عن الكلام واضطرم وجهها كأنما انعقد لسانهـــا عن الاستطراد فى الحديث . .

وازداد وجهها احمرارا وهى تنظر الى باقة الزهور فى يدها .! انها لأول مرة تفكر كثيرا فى هذا الوضع ؟ ..لقد اشترتها وهى فى طريقها الى باريس ٠ ولكنها لم تفكر كثيرا فيما ينبغى أن تفعل بها أو فى كيفية تقديمها الى الشاب !.. ترى ماذا سيظن بها .. أيليق أن تقدم فتاة عذراء باقة من الزهور الى شاب لاتربطه بها صلة خاصة !

وشعر « كلود » بالحرج مثلها برهة ، ولكنه لم يلبث ان ترك أدوات الرسم ، وقدم لها مقعدا وهو يقول :

ـ تفضلى بالجلوس يا انسة « كريستين » .. انها مفاجأة .. مفاجأة سارة جدا ..!

واستردت « كريستين » هدوءها بعد ان جلست ، ثم ابتسمت لـ « كلود » وهى تقدم اليه باقة الزهور قائلة :

ـ هذه الباقة لك ياسيدى .. أقدمها اعترافا بجميلك ..

ووقف برهة يتأملها فى صمت ، وفجأة تناول يديها بين يديه ، وضغط عليهما قائلا فى لهجة صادقة :

ـ اننى الان واثق تماما بأنك فتاة كريمة .. كريمة الاخلاق ، طيبة العنصر ..

ثم أردف قائلا وهو يضع الباقة فى اناء به ماء :

ـ وصدقينى اذا قلت ان هذه اول مرة أوجه مثل هذه العبارات الى فتاة ..!

واستدار اليها وحدق فى عينيها طويلا وقال :

ـ ألم تنسنى حقا ؟..

فضحكت وقالت :

ـ اننى لن أنساك طبعا ..

ـ اذن لماذا غبت عنى كل هذه المدة الطويلة ؟

فاحمر وجهها مرة أخرى ، وارتبكت لحظة قبل أن تقول :

وشـــعر « كلود » بالحرج مثلها برهة، ولكنه لم يلبث أن ترك أدوات الرسم، وقدم لها مقعداً وهو يقول : « تفضلي بالجلوس يا آنسة « كريستين » ..»



ـ لانى .. لاننى لم أكن حرة فى التصرف كما أريد .. ان مدام « فانزيد » جد كريمة معى .. ولكنها عاجزة ، ولا حيلة لها .. وقلما تغادر قصرها .. وهى التى طلبت منى أخيرا أن أخرج لاروح عن نفسى قليلا ..

ولـكنها لم تذكر له شعورها بالخجل كلما تذكرت تلك الليلة التى قضتها فى مرسمه مرغمة .. ولم تذكر له أنه كان أول رجل فى حياتها تقضى فى مسكنه ليلة كاملة .. ولم تذكر له انه ترك فى نفسهـا أثرا عميقا ، أثر الرجل الذى أيقظ الانوثة العارمة التى كانت نائمة فى جسمها العذرى ..

ولم تذكر له فى النهاية احساسها العميق باللهفة الى صداقة أى انسان بعد أن عاشت تلك الفترة فى قصر ساكن تكاد الحياة فيه أن تختنق .

ولكنها قالت :

ـ وقد رأيت ان من واجبى أن أزورك فى أول يوم أخرج فيه .. وان هذا اليوم من الايام الصحوة الجميلة بعد تلك الامطار التى ظلت تنهمر طيلة الشهرين السابقين ..

وظل « كلود » ينظر اليها وهو يشعر بفيض من السعادة الغامرة .. وقرر أن يكون صريحا معها ـ بدوره ـ فقال :

ـ لم أجرؤ على الاستمرار فى التفكير فى أمرك .. أترين ؟ لقد خيل الى فى النهاية انك واحدة من هذه الحوريات الاسطورية اللاتى يدخلن من الجدران الى الفنان فى الوقت الذى لايتوقع ان يراهن فيه .. وكثيرا ماقلت لنفسى : « لقد انتهى كل شىء .. ولعل ماحدث كان حلما .. » ولـكن هاأنت أمامى مرة أخرى ، ولست أدرى كيف أعرب لك عن سرورى برؤيتك ..

وابتسمت « كريستين » وأشاحت بوجهها خجلا .. ولما وقفت نظراتها على اللوحات ذات الخطوط الوحشية والاجساد العارية ، خامرها شعور بالرهبة ، فقالت بلهجة جادة :

ـ أخشى أن أعطلك عن عملك .. هل تأذن لى بالانصراف ؟ !

وصاح « كلود » قائلا وهو يراها تقف :

ـ لا .. لا .. مستحيل .. ارجوك ألا تنصرفى

ثم أجلسها وهو يردف قائلا :

ــ لقد أرهقت نفسي بالعمل اليوم ، وما أشد حاجتي الى الراحة وتبادل الحديث مع أحد عن آلامي بسبب هذه اللوحة التعسة ..

ولاول مرة ألقت « كريستين » نظراتها على اللوحة التي كانت منعكسة على الجدار في المرة السابقة ، وراحت تتأملها في اشفاق ، وسرعان ماراأت نفسها في المرأة العارية النائمة على العشب وقد وضعت ذراعها مطوية تحت رأسها .. كانت هذه المرأة صورة كاملة منها .. الجسد العاري البض بخطوطه العذرية .. والنهدان البارزان في فتنة عارمة .. والوجه الجميل الحالم ، والشعر الذهبي المرسل ..

وشعرت بغصة في حلقها وهي ترى نفسها في هذا الوضع العاري الذي لايهدف ــ في رأيها ــ الى أكثر من اثارة الاحساسات الجنسية ..

ولم تستطع أن تقول شيئا ، ومن ثم نهضت وقالت :

ــ يجب أن أنصرف الان ...

ونظر « كلود » اليها وقد امتزجت دهشته بالاستياء وهو يرى التغيير المفاجيء الذي طرأ عليها ، ثم قال :

ــ أهكذا سريعا !..

ــ نعم .. ان مدام « فانزيد » تنتظر عودتي بفارغ الصبر .. طاب يومك ..

واستطاع ان يمسك يدها قبل أن تغادر الغرفة ، ثم قال لها برجاء :

ــ متى سأراك مرة أخرى ؟!

وذابت يدها الصغيرة في يده .. وترددت هي برهة ، ثم قالت :

ــ لست أدري .. انني لا أكاد أفارق سيدتي ليلا أو نهارا ..

ثم سحبت يدها واردفت قائلة وهي تسرع بالانصراف :

ــ سأزورك يوما ما .. عندما تسنح الفرصة .. وداعا ..

ووقفت « كلود » متسمرا في مكانه ، خافق القلب ، يشعر كأن ضوء النهار قد انحسر وانصرف مع « كريستين » .!

وفجأة أفاق لنفسه ، فأغلق الباب بعنف ، وراح يسب بألفاظ

عنيفة كل النساء فى العالم ، وانطلق يركل كل شيء أمامه ، حتى اذا هدأت نفسه قليلا ، تقـــدم الى باقة الزهــور ، وراح يستنشق عبيرها ..

***

ومر شهران اخران .. وعاش « كلود » أمام لوحته لايكف عن العمل أياما متواصلة ، منقطعا عن الاهل والاصدقاء والمعارف .. ثم يثور فجأة ويشعر انه لم يحقق مايريد ، فيرفع ــ بسكين الرسم ــ وجه المرأة العارية ، لانه لا يعبر عن المشاعر التى يريدها ..

وكان كلما سمع طرقا على الباب ، تمنى أن تكون « كريستين » هى الطارقة .. فلما توالت الايام دون ان تأتى ، خامره اليأس مرة أخرى ، حتى سمع طرقات خفيفة ذات يوم من منتصف شهر أكتوبر ، فلما اذن للطارق بالدخول وهو يحسبها نموذجه الحى « مس بدفير » اذا به يرى « كريستين » واقفة أمامه

كانت ترتدى معطفا كبيرا من الصوف الرمادى ، ولكنها ــ رغم برودة الجو ــ كانت تبدو فى أحسن حال ، وقد أخذت تعتذر له عن تأخرها عن زيارته طيلة هذه المدة ، ثم ابتسمت وصارحته قائلة انها كانت تحاول ان تمتنع عن زيارته ، لانها لاتنسى ابدا شعورها بالخجل كلما تذكرت تلك الليلة الممطرة التى اضطرت فيهـــا للمبيت فى مرسمه !..

وجلست تتبادل معه الحديث وتنظر الى اللوحة الكبيرة .. وفى هذه المرة شعرت ان المرأة لاتشبهها ، جسدا ووجهها .. وأدركت انها كانت مخطئة فى المرة الاولى حين ظنت أن هذه المرأة العارية هى صورة طبق الاصل منها ..

ولما حان موعد انصرافها ، وقفت بالباب ، ومدت يدها الى «كلود» وقالت باسمة !

ــ سوف أعود الى زيارتك قريبا ..

فقال بمرارة واضحة :

ــ بعد شهرين طبعا ..

ــ لا .. سأزورك يوم الخميس القادم ...

وبرت بوعدها .. وجاءت فى الموعد المحدد . ومنذ ذلك الحين

أخذت تزوره مرة فى كل أسبوع على الاقل . وكانت فى أول الامر تأتى فى اليوم الذى تسمح لها فيه مدام « فانزيد » بالخروج للتريض ، ثم استقر الامر بينهما فى النهاية الى جعل يوم الخميس هو يوم الزيارة الاسبوعية ..

كانت تأتى مسرعة ، بعد مسيرة ساعة من ضاحية باسى الى المرسم ، وتقضى فترة الصباح مع « كلود » ثم تعود الى سيدتها مع الظهيرة .. واستمر الحال على هذا المنوال اربعة أشهر أخرى .. ولكن « كريستين » كانت تنتهز كل فرصة ممكنة عندما تخرج لتقوم بمهمة عاجلة لسيدتها ، فتسرع الى « كلود » وتجلس معه لحظات خاطفة قبل أن تعود ..

كانا يتحدثان فى كل شيء كأنهما طفلان سعيدان .. وفى ذات يوم قال لها « كلود » بعد أن حدثته « كريستين » عن تفانيها فى العمل مع مدام « فانزيد » :

ـ ترى هل ستجعلك وريثتها الوحيدة لثروتها الطائلة ؟ ! .. اننى شخصيا أعتقد هذا ..

فقالت « كريستين » فى ارتياب :

ـ ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى .. ولكن هل تعتقد هذا حقا ؟.. يقال ان ثروتها تبلغ ثلاثة ملايين فرنك ! .. اننى لا أستطيع أن أفكر فى احتمال كهذا ، بل اننى لا أريد أن أرث ثروة ضخمة كهذه ؟.. ماذا يمكن أن أفعل اذا حدث هذا حقا ؟ ! ..

فضحك « كلود » وقال :

ـ ستكونين فتاة واسعة الثراء .. ولعلها ستعمل على زواجك أولا قبل أن تترك لك مثل هذه الثروة الهائلة ..

وأرسلت « كريستين » ضحكة عالية وقالت :

ـ نعم .. من يدرى ؟ .. لعلها تزوجنى أولا من أحد اصدقائها العجائز ، مثل الكولونيل « فاردى » ذى الفك الفضى ..

واستمرت علاقة الصداقة قائمة بينهما .. ولكنها كانت تتحول تدريجيا ـ وفى بطء شديد ـ الى هـذا اللون من الحب البرىء الطاهر الذى يستمد نشوته من مجرد لمسة يد ، أو نظرة مختلسة ، أو ابتسامة خجلى ..

وكانا قد اعتادا أن يخرجا للنزهة معا فى أماكن بعيدة عن باريس حتى لا يراهما أحد من أصدقاء «كلود» .. وكانت كل لحظة تمر عليهما وهما يسيران جنبا الى جنب ، كأنها عمر كامل من السعادة والرضى »

ولكن جاء اليوم الذى وجد « كلود » نفسه ــ وكانت «كريستين» معه ــ وجها لوجه ، أمام صديقيه العزيزين « ساندوز » و « دوباك » .. وكان « كلود » وصاحبته فى طريقهما الى خارج متحف اللوفر بعد أن قاما بجولة فى قاعاته . وكان «ساندوز» وصاحبه فى طريقهما الى الداخل . وفوجىء « دوباك » برؤية « كلود » مع فتـــاة رائعـــة الجمال ، لم يسبق أن حدث أحدا عنها ، ومن ثم انحرف ليتقدم نحوه ، ولكن « ساندوز » أمسك بذراعه ، وجذبه بسرعة ، وهمس فى أذنه شيئا ، واستأنف الاثنان المسير كأنما لا يعرفان « كلود » . وشعر « كلود » فى أعماق نفسه بالشكر لـ « ساندوز» والتقـدير للباقته وحسن تصرفه .. أما « كريستين » فانها لم تر شيئا لانها كانت غارقة فى احلامها الوردية ، وفى سعادتها بهذا الحب الذى كان يتسلل الى قلبها يوما بعد يوم !..

وبعد أيام أخرى قليلة ، فوجىء الاثنان ــ وهما فى المرســم ــ بطرقات خفيفة على الباب .. طرقات « بيير ساندوز » .. وكان على موعد مع « كلود » فى ذلك الصباح ، الا أن «كلود» نسى الموعد حين جاءت « كريستين » لزيارته كعادتها ، أثناء قيامها بمهمـــة فى المدينة من أجل سيدتها . وشحب وجه « كريستين » ، ولكن «كلود» أشار الى المفتاح فى يده .. وكان من عادته أن يغلق الباب من الداخل بالمفتاح ويحمله فى يده كلما جاءت « كريستين » لزيارته حتى يأمن من مفاجأة احد لهما .. ووضع أصبعه على فمه كأنما يطلب منها أن تلتزم الصمت

وتكرر الطرق على الباب .. وراح « ساندوز » ينادى على « كلود » بصوت كله الدهشة .. فقد كانت تلك أول مرة يأتى فى موعد محدد بينهما دون أن يجد « كلود » فى انتظـــاره . ولما يئس فى النهاية ، استدار وراح يهبط الدرجات منصرفا ..

وتنهد الحبيبان فى ارتياح ..

ولكن ما كادت « كريستين » ان تنصرف ، حتى امتلأ قلب « كلود » بالاسى لأنه — لأول مرة فى حياته — يرفض مقابلة صديق الطفولة والصبا !

وفى ذات يوم بعد الظهر ، سمع « كلود » طرقا على الباب ، فهمس لـ « كريستين » فى جزع :

— ان المفتاح بالباب من الداخل ·· نسيت أن أرفعه ··

واندفعت « كريستين » فى خوف الى ما وراء السرير ، وركعت مستترة به ، ووضعت منديل يدها على فمها حتى لايسمع أحد صوت أنفاسها اللاهثة · ولما تكرر الطرق ، أذن « كلود » للطارق بالدخول ·· ودخل « جورى » أحد افراد العصابة ، ومعه الفتاة « ايرما بيكو » ·· وكانت من الفتيات اللاتى يعشن بين أحضان الفنانين ·· هربت من الحياة مع أمها وزوج أمها ، وألقت بنفسها فى آتون الحياة الباريسية ، تنتقل من ذراعى رجل الى ذراعى آخر ، وتبيت مع هذا الفنان ليلة أو بضع ليال حتى اذا ضاقت به أو ضاق بها ، انتقلت الى أحد أصدقائه ·· ولكنها ، فى خلال هذا كله ، كانت تضع نصب عينيها هدفا محددا ·· وهى أن تصبح ذات يوم احدى غانيات باريس المشهورات ، تعيش فى قصر فاخر ، وتتصرف فى قلوب الرجال كأنها ملكة غير متوجة ·· !

وكانت تعلم أنها ليست الاولى فى تحقيق مثل هذا الهدف ·· ولن تكون الاخيرة ·· !

وكانت فى ذلك الحين لاتتجاوز الثانية والعشرين من عمرها ، ممشوقة الجسم ، ضاحكة ، لعوبا ·· لاتعرف معنى الحياء العذرى ، وانما تعيش لنزواتها ولتحقيق رغباتها ·· ولاتنسى هدفها ·· !

وكان « فاجيرول » قد اهداها الى صديقه « جورى » بعد ان عاش معها ثلاثة أسابيع ·· وقد قال « جورى » فى شبه اعتذار لـ « كلود »:

— لقد أصرت « ايرما » على ان نقوم بهذه الزيارة المفاجئة لك يا « كلود » ··

وكانت « ايرما » تتلفت حولها ببساطة وكأنها فى بيتها ، ثم تقول:

— ما أعجب هذه اللوحات ·· وما أعجب هذا الرسم ·· هلم

يا « كلود » .. ودعنى أرى كيف تعيش .. وكيف ترسم .. أين سريرك .. ؟!

وخشى « كلود » أن تلمح « كريستين » ، وكان قد أشفق على حبيبته من سماعها حديث « ايرما » البعيد عن كل تحفظ .. وقال «جورى» :

انك تعرف يا « كلود » لماذا جاءت « ايرما » .. لقد وعدتها ذات يوم بأن تجعلها نموذجا للرسم .. وهى تأمل فى أن تسمح لها بالحياة معك بضعة أسابيع مثل بقية أفراد « العصابة » ..

وقالت « ايرما » بلهجتها الضاحكة :

ـ اننى على استعداد لان أبدأ حياتى معك فى هذه اللحظة .. وأعتقد أن « جورى » لن يرفض الانصراف اذا طلبنا منه هذا ..

وقال « كلود » وهو يحاول أن يخفى ارتباكه :

ـ ولكن هذه اللوحة سوف تشغل كل دقيقة من وقتى حتى موعد افتتاح الصالون الفنى السنوى .. وان المرأة العارية فيها لا تزال مبعث ارهاق لى .. اننى عاجز حتى الآن عن رسمها بالطريقة التى ترضينى ..

فقالت « ايرما » وهى تتأمل اللوحة :

ـ هل تعنى هذه المرأة الراقدة على العشب ؟! ..

ثم ابتسمت وقالت بصوت يسيل عذوبه :

ـ ألا استطيع أن أساعدك فى رسمها كما تحب ؟

وتحمس « جورى » للفكرة وقال :

ـ نعم .. نعم .. ان جسم « ايرما » سوف يلهمك يا « كلود » .. ان لها أجمل جسد فى باريس كلها .. لماذا لا تلقى عليه نظرة حتى تتأكد مما أقول ؟ هلم يا « ايرما » اخلعى ملابسك ودعيه يرى بنفسه..

ولم تتردد « ايرما » فى تنفيذ هذه الرغبة وكأنها كانت تنتظر أن تسمع هذه الكلمات بفارغ الصبر . وقبل أن يتمكن « كلود » من الاعتراض ، كانت قد ألقت بقبعتها جانبا ، وخلعت ثوبها ، وتركت قميصها التحتى ينزلق عن كتفيها ، واذا هى واقفة عارية تماما ..

وكان « كلود » فى خلال هذه اللحظات يهتف قائلا :

ـ لا .. لا .. أرجوك .. ان جسمك أصغر من جسم المرأة التى رسمتها على العشب .. وهى .. شكرا .. لا .. أرجوك

وقالت « ايرما » وهى تستدير وتستعرض جمال جسمها العارى أمامه

– هل يمنع هذا من أن تلقى نظرة على جسمى ٠ ؟٠٠ ألا يمكن أن تستخدمنى فى رسم لوحة أخرى ؟! ٠٠

وقال « جورى » مداعبا :

– ماهذا الارتباك يا «كلود » ؟٠ انك تعرف ان « ايرما » لا تحب فى الحياة أكثر من استعراض جسمها العارى الجميل أمام الناس ٠ ولو كان الامر بيدها لما أخفته يوما تحت ثوب من أى نوع ! ٠٠ تقدم ياصديقى وخذها بين ذراعيك ولا تخش شيئا ٠٠ انها لن تأكلك٠٠!!

ولكن « كلود » كان يمسك بقطع ملابس « ايرما » ويقدمها وهو يرجوها أن ترتديها مؤكدا لها انه سوف يرسمها يوما مافى لوحة خاصة ٠٠

وهزت « ايرما » كتفيها وهى تنظر الى « كلود » بعينين يقولان له بكل وضوح « اذا لم أستطع أن أوقع بك يوما بين ذراعى ، فلن أكون أجمل غانية فى باريس يوما ما ٠٠ »

وراح « جورى » يثرثر مع « كلود » عن أفراد « العصابة » فسأله لماذا لم يحضر عشاء يوم الخميس عند « ساندوز » كالمعتاد ، ولماذا لم يعد يتردد على حى مونمارتر لمشاركة أصدقائه سهراتهم ؟ ٠٠ ان « دوباك » يؤكد أنه – أى « كلود » – يعيش أيامه مع ممثلة مشهورة ٠ وقد حدثت مشادة حامية بين « فاجيرول » و « ماهو » حول اخر تطورات فن النحت ٠ أما « جانيير » فقد خرج من احدى الحفلات الموسيقية بعين مورمة بعد أن تكلم مع زوج المرأة التى كانت معه ٠٠ وأما « جورى » – فقد تبارز مع أحد الفنانين فى مقهى بودكين بحى مونمارتر ، لانه انتقده بعنف فى احدى مقالاته ٠٠

وكان « كلود » يصغى فى حالة من الضيق الواضح وهو يداعب أدوات الرسم بين يديه ، كأنما يريد أن يقول لـ « جورى » ان وقته فى تلك اللحظات أثمن من أن يضيعه فى هذا اللون من الثرثرة ٠٠
وأخيرا قال « جورى » :

يبدو أنك تريد أن تعمل ٠٠ ولهذا يحسن أن ننصرف الآن ٠٠

وقالت « ايرما » بلهجة ذات دلالة خاصة ، وهى تصافحه عند الانصراف :

ـ انت تعرف اننى دائما تحت أمرك •• !

ومرة أخرى تنهد الحبيبان فى ارتياح بعد انصراف الضيفين ••

ولما جاءت « كريستين » لزيارة « كلود » فى المرة التالية ، رأته يروح ويجىء أمام لوحته وهو فى حالة يأس بالغ •• ولاول مرة لم يرحب بها أو يشعر بوجودها ، فجلست على الاريكة محزونة ،لاتدرى ماذا تفعل • وفجأة جلس بجانبها وقال لها بصوت كله الرجاء :

ـ أرجوك •• أرجوك أن تساعدينى •• لقد عشت الاسابيع الاخيرة وأنا متردد فى مصارحتك •• اننى أريد منك خدمة بسيطة ••

وقالت فى دهشة بالغة :

ـ أية خدمة تعنى ؟! ••

ـ أريد أن أعيد رسمك •• أعنى رسم وجهك وذراعك المطوية تحت الرأس •• اننى أكاد أفقد عقلى من فرط اليأس •• !

وسرعان مارقدت بعد أن خلعت ثوبها الخارجى ، ووضعت ذراعها تحت رأسها وهى تقول :

ـ الرأس فقط ! ••

ـ نعم •• نعم •• أؤكد لك أننى لا أريد الا الرأس فقط !

وسرعان مااستغرق « كلود » فى الرسم •• وبعد جلستين ، فرغ من رسم الرأس بالاسلوب الذى أرضاه وملأ نفسه بالسعادة ، فراح يضحك كالطفل المبتهج بلعبة جديدة •• وقال لها وهو يشد يدها فى حرارة :

ـ الان أستطيع أن أستكمل الجسم بعد أن استرحت من رسم هذه الرأس العنيدة بالاسلوب الذى يرضينى ••

ولكن « كريستين » فوجئت به ثائرا ذات يوم ، فى منتصف شهر مارس ، ولم يكن باقيا على موعد افتتاح الصالون الفنى الرابع غير أسبوعين ، ولاحظت أن اللوحة ملقاة بجانب الجدار •• فهتفت قائلة :

ـ « كلود » •• ماذا حدث •• ؟

فهز رأسه فى حزن عميق وقال :

ـ لن أدخل بها الصالون الفنى هذا العام أيضا !

ـ لماذا ؟! ..

ـ لانى عاجز عن رسم الجسم بالطريقة التى ترضيننى .. ليس من المعقول أن أضع رأسا معينة على جسم آخر ..

فصمتت « كريستين » برهة ثم قالت :

ـ اذا وجدت النموذج المنـــاسب للجسم ، فهل لديك من الوقت ما يكفى للتقدم باللوحة الى الصالون الفنى ؟ ..

فأومأ برأسه وقال :

ـ نعم .. وقد فكرت كثيرا فى الاســـتعانة ب « ايرما بيكو » .. وربما استعين بها فى آخر لحظة اذا لم أجد النموذج الذى أتمناه ..

وكانت « كريستين » تدرك أنه يتمنى اعادة رسم جسمها كاملا فى لوحته التى كان يراها الاساس الذى سيقيم عليه مجده الفنى ..

وأبت أن تعترف فيما بينها وبين نفسها بأن الغيرة من « ايرما » هى التى جعلتها تقول وهى تخلع ملابسها ببطء :

ـ اننى تحت امرك يا « كلود » .. وما أظن أننى ســـأستطيع ان أغفر لنفسى اذا خذلتك فى مثل هذه الظروف ..

وكاد « كلود » أن يفقد صوابه من فرط الابتهاج ، وهو يراها ترقد فى الوضع المطلوب .. وسرعان ما استغرق فى الرسم بحماس وصمت جعل جو المرسم كأنه معبد للفن ..

ومرت الساعات وهما مستغرقان فى الصمت .. « كلود » يعمـــل كالمجنون و« كريستين » ترسم على شفتيها الابتسامة المطلوبة ، ولكنها لا تكف عن التفكير فى هذا الفنان الذى وهبته قلبها العذرى .. !

وأخيرا ألقى بالفرشاة فى فرحة غامرة وقال :

ـ الآن استطيع أن أضمن الفوز فى مسابقة الصالون الادبى .. !

ونهضت هى ببطء ، وارتدت ملابسها ، ووقفت أمامه والدمـــوع تملأ عينيها .. !

ولم تكن تعرف أهى دموع الاسى ، أم دموع الفـــرح ، أم دموع الحب !!

وتقدم هو نحوها ، وطبع على جبينها قبلة أودعها كل ما يزخر به قلبه من شكر وعرفان بالجميل ..

الفصل الخامس

مـرارة الهـزيـة

فى صباح اليوم الخامس عشر من شهر مايو ، كان « كلود »لايزال مستغرقا فى النوم بعد سهرة صاخبة أمضاها مع « العصابة » حتى الثالثة بعد منتصف الليل ٠ وكانت آثار النوم لا تزال فى عينيه حين دخلت مدام « جوزيف » ـ حارسة الباب » ووضعت فى اناء الزهـور باقة كبيرة من الزنابق البيضاء ٠ وابتسم وهو يتأملها ٠٠ لقد عرف أنها زهور « كريستين » أرسلتها اليه اعرابا عن تمنياتها له بالنجاح بعد أن استطاع أخيرا أن يرسل لوحته « مع الطبيعة » الى الصالون الفنى فى الموعد المحدد ٠٠

ولمست هذه اللفتـة الجميلة قلبه ٠٠ لقد أدرك معنـاها ، ان « كريستين » ترسل اليه هذه الباقة من الزهور ليستقبل بها يومـه هذا الحاسم فى حياته ٠٠ حقا ان لوحتـه معروضـة فى « قسم المرفوضات » ٠٠ وذلك بعد أن أصر الاعضاء الجدد فى لجنة التحكيم على عرض اللوحات المرفوضة فى قسم خاص بالمعرض الكبير ٠٠

واعتبر « كلود » عرض لوحته فى قسم المرفوضات نصرا كبيرا له ٠٠ ان هذا العرض دليل على أن نظرته الجديدة هى ثورة على الفن التقليدى القديم ، لان الرفض لم يقم على أساس سوء مستوى الرسم أو خلو اللوحة من اللمسات الفنية الرائعة ، وانما لانها خارجة عـن الاسلوب التقليدى القديم ٠٠ !

وكان قد اتفق مع « دوباك » و « ساندوز » على أن يذهب اليهما فى الساعة الثامنة صباحا ليمضى معهما الى « قصر الفن » حيث تعرض اللوحات المرفوضة ٠٠ وحيث يلتقون جميعا ببقية أفراد « العصابة »٠٠

ولكن الساعة كانت تعلن التاسعة حين استقيظ ..

وبعد أن ارتدى ملابسه ، وتناول افطارا خفيفا ، قبل زهور الزنبق وملأ صدره من عبيرها ، ثم قال لمدام « جوزيف » وهو يسلمها مفتاح مرسمه :

ـ لسوف أمضى النهار كله فى الخارج ..

وفى أقل من عشرين دقيقة كان فى مسكن « ساندوز » بشـــارع دانفير .. ورغم أنه لم يتـــوقع أن يجده ، الا أن « ساندرز كان قد اضطر للبقاء بسبب وعكة عنيفة أصابت أمه فى الليلة السابقة ،فصعد الى مسكنها الخاص وأمضى الليل معهـــا حتى اطمأن عليها .. ولهذا تأخر بدوره فى النوم

وكان « دوباك » قد أرسل الى « ساندوز » يقول انه لن يستطيع الحضور فى ذلك الصباح ، ولكنه سيلتقى بهما فى قاعة العرض . ومن ثم سار الصديقان فى الطريق الى القاعة .. ولكن عندما أعلنت ساعة أحد الميادين الحادية عشرة ، قررا أن يتناولا وجبـــة غداء خفيفة فى محل ألبان بشـــارع سان أونوريه .. وقد ظلا يتلكآن على المائدة وكأنما لا يشغلهما شىء الا ذكريات الطفولة والصبا ..

ودقت الساعة معلنة الواحدةبعد الظهر حينأخذا يعبران الشانزليزيه .. وكان الجو صحوا والهواء رخاء ، وبوادر الربيع تتهادى بلمساتها السحرية فى كل مكان ..

وعند اقترابهما من « قصر الفن » رأيا الجموع الحاشدة تتدافـــع فى الطريق اليه ، راجلين وراكبين ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا .. وكانت قاعات القصر الهائلة تبتلعهم ـ الفوج بعد الاخر ـ وكأنمـــا تقول : هل من مزيد .. !

وسرت الرعدة فى جسم « كلود » حين وجد نفسه فى ردهة المدخل الهائلة ..

وقال الصديق وهو يهم بصعود الدرجات الى الطابق الاعلى :

ـ لماذا نشق طريقنا بين هذه الجموع لنتفرج على تلك التفاهات التى وافقت عليها لجنة التحكيم بالصالون الفنى ؟!

فقال « ساندوز » :

ـ انك على صواب .. يحسن بنا أن نمضى الى الحديقة الخلفية ،

ونصعد الى قاعات عرض « المرفوضات »

وبلغا الحديقة الخلفية المسقوفة بالزجاج ٠٠ وكانت غير مزدحمة بالوافدين ، لان معظمهم انطلقوا الى موائد الطعام المصفوفة تحت تمثال الساعة الكبرى فى الحدائق الامامية ، ليتناولوا وجبة الغداء ٠٠ أما الباقون فكانوا فى الطابق الاول يشاهدون اللوحات المعروضة فى قاعاته الكبرى ٠٠

وفيما كانا يسيران بين التماثيل المرمرية والبرونزية المنحوتة بأيدى الفنانين من أعضاء لجان التحكيم ، شاهدا استاذهما فى مدرسة الفنون الجميلة العليا ـ مسيو « بوجراند » ـ يسير متمهلا فى الطريق الى قسم المرفوضات ٠٠ ولما رآهما ، ابتسم وهتف مرحبا بهما ،وقال بعد أن صافحهما بحرارة :

ـ كنت أشاهد الآن تمثال صديقكما « ماهورير » لقد قبلته اللجنة ووضعته للعرض فى مكان مناسب ٠٠

ثم توقف فجأة وقال :

ـ هل صعدتما الى الطوابق العليا ؟! ٠٠

فرد « كلود » قائلا :

لا لقد وصلنا الان فقط ٠٠

وراح يحدثهما عن مناقشات لجان التحكيم بالصالون الفنى ،وكان قد انتخب فى ذلك العام عضوا بها ، وفى نهاية حديثه قال :

ـ وأؤكد لكما أننا أنصار الواقعية الجديدة استطعنا أن ننتصر وأن ندفع الفنانين الى الالتجاء للنصر الامبراطورى ، مما أدى الى صدور قرار رسمى بعرض جميع اللوحات المرفوضة فى قسم خاص حتى يكون للرأى العام حق الحكم لها أو عليها .. اننا أعضاء لجان التحكيم ـ لسنا من الآلهة التى لا ينقض لها قرار ..

ثم راح يحدثهما ـ ضاحكا ـ عن المناورات التى حدثت ، وعن « المحسوبيات » التى كان لها أكبر الاثر فى قبول عدد كبير من اللوحات، وعن مبدأ « تبادل المساعدة » بين الاعضاء ٠٠

وقال « كلود » :

ـ هل نجح قسم المرفوضات يا سيدى ؟ !

ـ بكل تأكيد يا عزيزى « كلود » .. ان فيه لوحات رائعة ..

ثم امسكه بكلتا يديه وأردف قائلا :

ــ يقولون عنى اننى فنان كبير يا « كلود » ·· ويؤكدون هذا بلوحتى « زمان فى القرية » التى وقع الاختيار عليهـا منذ أعوام للعرض فى متحف اللوكسمبورج ·· ولكننى أؤكد لك ، مع هـذا كله أنى على استعداد للتنازل عن عشرة أعوام من عمرى لكى أتمكن من رسم المرأة العارية فى لوحتك المعروضة فى قسم المرفوضات ·· أعنى لوحة « مع الطبيعة » انك ثورة جديدة فى عالم الفن يا « كلود » .. !

وانعقد لسان « كلود » تأثرا ، وطفرت الدموع فى عينيه وهو يسمع مثل هذا الثناء من فنان كبير كأستاذة « بوجراند » .. ولما عجز عن أن يقول شيئا استدار الى تمثال صديقه « ماهوديو » وقال مغيرا الموضوع .

ــ ان تلميذك « ماهوديو » يا سيدى قد نجح أيضا فى عرض هذا التمثال الرائع الذى أسماه « المزاج » ..

ــ نعم .. نعم .. ولكنه أسرف فى طول الساقين وفى ابراز الصدر .. الا أنه أحسن التعبير عن الموضوع الى حد الاعجاز .. حسنا .. حسنا .. لسـوف افترق عنكما هنا ، فقد تعبت قدماى من كثرة المشىء داخل القاعات التى لا حصر لها .. لسوف أبحث عن مقعـد فى ركن ظليل لاستريح عليه

وفى تلك اللحظة ، سمع «كلود» ضجيجا هائلا وكأنه هدير العاصفة التى تجتاح سلسلة من الجبال الصخرية فى عالم بعيد .. ومن ثم قال مدهوشا :

ــ ما هذا ؟ ! ..

فقال « بوجراند » وهو يبتعد :

ــ انها المجموعة ·· التى تمثل الرأى العام !!

وانطلق الشابان عبر الحديقة الى قسم المرفوضـات . وهناك فوجىء كل منهما بزحام لا يمكن وصفه .. جموع بعد جموع ،تتزاحم وتتدافع للفرجة على اللوحات المرفوضة .. وكانت كلها معروضـة بعناية وبراعة وفى اطار من الفخامة والروعة حتى لا يقال ان اللجنة لم تتح لها كل فرصة لجمال العرض ..

« ساندوز » مذهولا :

ــ ويحنا .. كيف سنشق طريقنا بين هذه الامواج المتلاطمة من

الجموع البشرية حتى نصل الى المكان الذى عرضت فيه لوحتك..
وقال « كلود » :
ـ لا تقلق .. لسوف نصل اليها فى الوقت المناسب ..
وهكذا ظلا يتنقلان من قاعة الى أخرى ، حتى سمعا فى احدى القاعات الثانية ضجيج الضحك والمرح ، فقال « كلود » :
ـ يبدو أن المتفرجين فى تلك القاعة وجدوا ما يثير ضحكاتهم .. هلم نشترك معهم يا « ساندوز » ..
وفيما هما يشقان طريقهما الى قاعة « الضحك » التقى بهما « فاجيرول » الذى شعر بالاستياء فجأة ، ولكنه تمكن من اخفاء شعوره بسرعة ، ثم هتف بلهجته اللطيفة التى تنم عن المودة والمجاملة:
ـ أوه .. كنت أبحث عنكما يا صديقاى .. اننى هنا منذ أكثر من ساعة ..
فقال له « ساندرز » :
ـ أين لوحة « كلود » ؟ ماذا فعلوا بها .. اننا لم نرها حتى الان..!
ورغم أن « فاجيرول » كان قد وقف امام اللوحة عشرين دقيقة يدرسها ويدرس استقبال الجمهور لها وتأثره بها ، فقد قال مراوغا:
ـ لا أعرف .. هلم نبحث عنها معا ..
ثم سار معهما نحو القاعة « الضاحكة » وهو يستطرد قائلا :
ـ اننى نادم لانى لم أشترك هذا العام فى « الصالون الفنى » .. فلو انى فعلت لكانت لى الان لوحة معروضة فى قسم المرفوضات هذا .. والواقع ان هذه المرفوضات قد تركت فى نفوس الجماهير أثرا أقوى وأفضل من تأثير اللوحات المقبولة ...
ثم أردف قائلا وهو يشير الى لوحة ضخمة رسمت عليها مجموعة من الجياد العجفاء بألوان بنفسجية وصفراء وخضراء .. وكانت عظام الجياد تكاد تبدو بارزة من جلودها :
ـ هذه اللوحة مثلا .. أليست شيئا مثيرا ؟ ..
ونظر « كلود » اليه فى ارتياب وقال :
ـ ماذا تعنى ؟ .. هل تحسبنا أغبياء الى هذا الحد يا « فاجيرول » ؟
فقال « فاجيرول » دون أن يطرف بعينه أو يرتسم طيف ابتسامة

على وجهه :

ـ لا .. لا .. مطلقـــا .. أيا كان الرأى فى ألوان هذه اللوحة ، فانها شيء خارج عن المألوف ، ثائر على العناصر التقليدية فى الفن .. أليس هذا ما يهدف اليه أصحاب المذاهب الجديدة ؟ !

ولم يستطع « فاجيرول » فى تلك اللحظة أن يخفف من عينيه نظرة التهكم والسخرية ، ثم أردف قائلا :

ـ ونحن اذا اهتممنا بآراء الجماهير الجاهلة فلن نتقدم .. ومن يدرى فان اللوحة التى تثير ضحك الجماهير وتعليقاتهم اللاذاعة قد تكون اللوحة التى يجب أن تخلد على مر الزمن .. !

واستمر الاصدقاء الثلاثة يشقون طريقهم .. وما لبثوا أن رأوا « ايرمابيكو » ملتصقة بجانب « جانيير » وقد وقفا يتفرجان عـلى لوحة صغيرة جدا تمثل وجه امرأة غارقة فى الضحك ..

وقال « ساندوز » :

ـ أوه .. يبدو أن «ايرما» قد تحولت فى هذه الايام الى«جانيير».

فقال « فاجيرول » بغير مبالاة :

ـ انها احدى نزواتها العابرة .. ورغم ان رجلا ثريا قد استأجر لها شقة وأثثها بأفخر المفروشات والرياش ، فانها لا تتردد فى خيانته والانطلاق مع أحد أصدقائها الفنانين كلما سنحت لها الفرصة ..

فقال « ساندوز » :

ـ ألا يعرف أحد من هو هذا العشيق الاحمق ؟

ـ انه يحمل لقب ماركيز .. ويبدو أن « ايرما » قد بدأت تحقق هدفها لتغدو احدى غانيات التاريخ ! .. انها فتاة لا ينقصها الذكاء .. هذا هو رأيى فيها دائما ، لا يعيبها الا هيامها بالفنانين .. انك لو وضعتها فى قصر ملكى ، لتسللت منه كل مســـــاء لتعيش معهم فى مونمارتر ، ولتقضى ليلة الاحد من كل اسبوع بين ذراعى فنان .. !

واستدار « جانيير » برأسه ، وابتسم حين لمح أصدقاءه الثلاثة..

فلما لحقوا به قال له « كلود » :

ـ اين لوحتك يا « جانيير » ؟

فأشار « جانيير » الى لوحة معلقة فى مكان قريب . وكانت تمثـل منظرا طبيعيا تغلب عليه الالوان الرمادية. وكان الواضح انها مرسومة بيد فنان أصيل ملهم .. ومن ثم قال « كلود » فى دهشة :

ـ انها تحفة رائعة يا « جانيير » كيف رفضتها لجنة التحكيم ؟
فقال « فاجيرول » بلهجة جادة حاسمة :
ـ لانها احدى لوحات المذهب الواقعى ..
ولم يدر احد هل كان ينحى باللوم على المذهب الواقعى أم على لجنة التحكيم ..
وكانت « ايرما » فى تلك اللحظة قد بدأت مناوراتها لتلفت أنظار « كلود » اليها .. ولكنه لم يستجب لمحاولاتها ، فهزت كتفيها فى يأس ثم أشارت الى مجموعة من أربعة أشخاص كانت فى طريقها الى القاعة التى تصدر عنها ضجة الضحك والمرح ، وقالت :
ـ عجبا ! .. أليس هذا « دوباك » ؟ ترى من هؤلاء الذين معه ؟..
ونظر الجميع الى « دوباك » فرأوه مع رجل طويل القامة ، بدين الجسم ، مفتول الشاربين ، وسيدة عجفاء ممطوطة الوجه ، شاحبة كأنها على وشك الموت ، وفتاة صغيرة الجسم سقيمة ، كأنها تعانى من مجموعة أمراض مزمنة .
وقال « كلود » فى دهشة :
ـ عجبا ! .. من أين جاء « دوباك » بهذه الاسرة العجيبة .. القبيحة المنظر ؟
وقال « جانيير » :
ـ ان الرجل البدين هو المليونير « مارجيلا جانيير » صاحب شركة البناء والتعمير .. وتلك زوجته العجفاء والاخرى ابنته السقيمة دائما .. ان « مارجيلا » يستغل ملايينه لاعادة بناء باريس .. ولاشك أن « دوباك » تعرف عليه عن طريق اشتغاله بالهندسة المعمارية ..
وقال « ساندوز » فى عطف على الابنة السقيمة :
ـ يا للمسكينة .. انها تبدو كالارنب المساوخ !
فقال « كلود » بخشونة :
ـ يكفى هذا .. ان هذه الابنة هى النتيجة الحتمية لاسرة تعيش على دماء الشعب .. واذا أراد « دوباك » أن ينضم الينا ، فعليه أن يترك أصدقاءه هؤلاء ويلحق بنا ..
ولكن « دوباك » لم ير أصدقاءه الفنانين ، لانه كان قد دخل فى تلك اللحظة مع أصدقائه الجدد الى القاعة التى كان الضحك العريض يصدر عنها ..

وقال « فاجيرول » :

ـ هلم نمضى ؟ .. لقد آن لنا أن نتحرك من مكاننا هذا ..

ثم التفت الى « جانيير » وأردف قائلا :

ـ ألا تعرف يا « جانيير » أين وضعوا لوحة صديقنا « كلود »

فأجاب « جانيير » قائلا :

ـ لا .. اننى أبحث عنها أيضا ، ولهذا سوف أمضى معكم ..

وأخذ الاصدقاء الاربعة ومعهم « ايرما بيكو » يشـــقون طريقهم حطوة بعد اخرى نحو القاعة « الضاحكة » ..

وفى منتصف الطـريق اليها ، التقى بهم « جورى » بحيـــويته وابتسامته وحسن هنـــدامه ، وما كاد أن يرى «كلود» حتى هتف قائلا بحرارة :

ـ ها أنت ذا أخيرا .. لقد كنت ابحث عنك منذ ساعة .. أتريد الحقيقة يا صديقى العزيز .. اننى لم أر فى حياتى شيئا رائعـــا كهذا .. !

ـ فقال « كلود » فى دهشة :

ـ عن أى شىء تتحدث ؟ ..

ـ عن لوحتك طبعا .. لقد لقيت من النجاح مالا يطمع فى مثله أحد . يجب ان أقودكم اليها .. ولكن .. لا .. اذهبوا وشاهدوا بأنفسكم .. انها شىء مذهل ..

وغمرت البهجة « كلود » وتذكر ما قاله استاذه « بوجراند » ومن ثم أيقن أن لوحته ظفرت فى النهاية بأعظم نجاح منتظر ..

وقال « جورى » وهو يصافح الجميع :

ـ طاب يومكم جميعا .. ما اسعدنى بلقائكم هكذا مجتمعين ..

وقالت « ايرما » باسمة للجميع :

ـ وكأننا أفراد اسرة واحدة ..

وقال «ساندوز» فى لهفة وحماس :

ـ أين هى لوحة «كلود» يا «جورى» ؟ .. قدنا اليها بسرعة ..

ومضى « جورى » امام الجميع نحو القاعة الضاحكة .. وهناك ، فى مدخلها ، أشار الى لوحة «كلود» المعلقة فى صدر الجدار المواجه للباب مباشرة :

ـ هاهى ذى .. ما رأيكم فيما تلقاه من نجاح ساحق .. ؟!

وجفل « جانيير » كأنما أصيب بلكمة مفاجئة على وجهـه ، ثم قال :

ـ أهذه هى اللوحة ؟ .. يخيل لى أنى رأيت فى مرسم «كلود» شيئا آخر غيرها وهتف به « جورى » قائلا :

ـ شيئا آخر .. لا تكن أحمق يا «جانيير» ،انها النجاح المجسم .. وماذا يهم اذا كانت الجماهير تضحك منها ؟.. منذ متى نقيم لراى الرعاع وزنا ؟ .. ان الصحف لن تتحدث غدا الا عنها ..

وقال « ساندوز » فى رعب :

ـ يا للرعاع الحمقى ..

ووقف « فاجيرول » فى هيئة صديق العائلة الذى جاء لمواساتها فى مصابها الفادح .. وانحنت « أيرما » برأسها على صدر « كلود » وقالت فى همس وبصوت متهدج بالعطف :

ـ لاتدع ضحكات هذا الجمهور الاحمق تؤثر عليك ، ابتسم .. واضحك ..

ولم يتحرك « كلود » فى مكانه .. لقد أحس كأنه تجمد فجأة .. وكأن قلبه توقف عن النبض .. وراح يحملق كالمذهول فى لوحته ، أنه يراها لأول مرة خارج المرسم .. يراها فى جو غريب ، وفى ضوء غريب ، وبين عدد ضخم من الغرباء .. واستطاع فى لحظات ان يدرك الاخطاء العديدة التى كان ينبغى أن يفطن اليها .. ولكن الاشـــهر الطوال التى قضاها فى رسمها وفى النظر اليها يوما بعد يوم ، جعلته يغفل عما بها من اخطاء .. ولكن المرأة العـارية كانت ـ رغم كل شيء ـ تحفة رائعة مذهلة يعجز عنها أعظم الفنانين .. على ان اللوحة فى مجموعها أخفت عن أعين الجماهير الجاهلة بالفن روعـة الجمال فى رسم المرأة العارية .. ان الجماهير كانت تضحك من وجود امرأة عارية أمام رجل مستدير بظهره ، مرتد كامل ملابسه . وقد بدأ أحد المتفرجين عاصفة الضحك بعبارة نقد لاذعة .. وسرت عدوى الضحك الى الجميع ، وانتشرت التعليقات فى انحاء القصر . ان فى القاعـة الخامسة لوحة تجعل من يراها يكاد يموت من فرط الضحك .. وهكذا تسابقت الجماهير ـ أفواجا بعد أفواج ـ وكل منهم يخشى



وجفل « جانيير »
كأنما اصيب بلكمة
مفاجئة على وجهه،
ثم قال : « أهـذه
هى اللــوحة ؟ »

أن تفوته رؤية هذه اللوحة العجيبة .. وكان طبيعيا ان يتبارى أصحاب العبث والمجون فى ابتكار العبارات المثيرة للضحك ، وفى القذف بالتعليقات اللاذعة حتى تستمر موجات الضحك فى تتابعها..

وأفاق « كلود » من ذهوله على صوت أراد صاحبه ان يجعله فوق أمواج الضحك الهادرة :

— لشد ما أتمنى أن أرى هذا الاحمق الدعى الذى رسم هذه اللوحة المضحكة !

وكان المتحدث بذلك الصوت المرتفع هو المليونير « مارجيلان »..
وفى تلك اللحظة ، تلاقت نظرات « دوباك » بنظرات « كلود » .. ولكن « دوباك » استدار بظهره ، وحاول ان يبد أمام اصدقائه الجدد انه لا يعرف شيئا عن صاحب هذه اللوحة « المضحكة »

وأحس «كلود» بكل مرارة الحياة تملأ فمه ، وهو يستديروينطلق الى الخارج ، غير حافل بنداءات أصدقائه .. لقد اراد ان يمضى الى الهواء الطلق .. بعيدا عن تلك الامواج الضاحكة التى كانت ترن فى اذنيه كأنها أجراس رهيبة فى مكان شيطانى .. !

واندفع يجوب الطرقات فى باريس على غير هدى .. وظل فى هذا التجوال حتى غابت الشمس ، وحتى قادته قدماه — بلا وعى — الى مرسمه ..

وما كاد يتهالك على اقرب مقعد ، حتى سمع صوت « كريستين » وهى تقول له بنبرات كلها العطف والحب :

— اننى انتظرك هنا منذ ثلاث ساعات ..

ثم ركعت امامه وتمتمت قائلة :

— لقد رأيت كل شىء يا « كلود » .. ولكن .. لاتحزن .. أرجوك .. ان المستقبل لا يزال ممتدا أمامك .. أوه .. « كلود » .. لا تبك .. لا تبك يا حبيبى .. اننى لا أطيق ان أراك باكيا ..

فنظر « كلود » اليها بعينين مبللتين بالدموع ثم قال :

— ما اشد الالم الذى يحسه الفنان عند الهزيمة .. !

— انها ليست هزيمة .. وانما هى احدى معالم الطريق الى النجاح .. اننى احبك يا «كلود» .. أحبك أكثر من نفسى .. ألا تعرف هذا ؟

ولأول مرة فى حياتيهما ، يتعانقان .. ولأول مرة تلتصق شفاههما فى قبلة طويلة أنست «كلود» مرارة الهزيمة .. !

وأخذت ساعات الليل تمضى بطيئة وهما متعانقان ، يذرفان دموع الفرح من فرط احساسهما بالسعادة .. وعلى مقربة منهما ، كانت أزهار الزنبق تملأ جو المرسم بالعبير .. وبالمزيد من الحب !



الفصل السادس

فى احضان الطبيعة

قال لها وهى لا تزال تجلس بجواره :

ــ امكثى معى .. معى الى نهاية العمر يا « كريستين » ..

ــ لا .. ليتنى استطيع .. ولكن هذا مستحيل . يجب أن أعود الى البيت الآن .. لسوف أزعم لمدام « فانزيد » انى قضيت الليلة مع صديقة لى .. فهمس « كلود » وهو يغمر وجهها بقبلاته :

ــ غدا اذن .. عودى غدا .. ارجوك ..

فأومأت برأسها ، وبدأت تستعد للخروج .

وفى الصباح التالى ، عادت فى الساعة السابعة وهى لا تزال مضطربة الوجه خجلا من الكذبة التى قالتها لمدام « فانزيد » اذ .. زعمت لها أنها امضت الليلة السابقة مع صديقة حميمة من بلدتها كلير مونت ..

وكاد « كلود » يفقد عقله من فرط الابتهاج حين قالت له انها سوف تمضى اليوم كله معه .. واقترح ان يذهبا الى الريف .. وسرعان ما كانا يندفعان الى أقرب محطة للسكة الحديدية حيث لحقا بالقطار الذى كان يتحرك منها الى قرية بونكورت .. وكان يوما جميلا من أيام شهر مايو ، وكانت الاشجار تتألق بالخضرة ، واغصانها تتراقص على أجنحة الهواء البارد تحت سماء صافية وشمس حانية ..

ولما وصلا الى القرية ، ذهبا الى مطعم صغير ، وجلسا فى قاعة الاكل الواسعة ، وهتف « كلود » قائلا لصاحب المطعم :

ــ طاب صباحك يا « فوشيه » .. هل يمكن أن تعد لنا وجبة غداء من العجة والسجق والجبن وزجاجة من النبيذ الابيض .. ؟

فقال له « فوشيه » :

ــ ان لدينا فوق المطعم مكانا جديدا للمبيت ·· فهل ستقضى الليلة هنا مع زوجتك يا مسيو « كلود » ؟

ــ لا ·· فى وقت آخر ··

وأقبلت زوجة « فوشيه » ترحب بـ « كلود » وتقول :

ــ هه يا عزيزى المسيو « كلود » ·· يبدو انك تزوجت اخيرا ·· دعنى أهنئك على حسن اختيارك ·· ان عروسك جميلة حقا ··

فقال « كلود » بلا تردد :

ــ شكرا يا مدام « فوشيه » .. ان الانسان لابد له ان يتزوج يوما ما .

وتناولا الطعام فى سعادة غامرة ، وكانت « كريستين » من فرط السعادة لا تكف عن الضحك والعبث .. وأخيرا قالت بعد ان فرغا من الاكل

ــ هلم نمضى الى احضان الطبيعة :

ــ نعم .. فكرة جميلة .. آسوف نعود فى قطار الرابعة ، ولايزال أمامنا اربع ساعات ..

وسارا معا على ضفاف نهر السين ، ثم انحرف « كلود » بفتاته الى طريق فى الغابة ، حتى اذا بلغا ساحة معشبة فى قلبها ، خيل اليهما انهما فى جنة بعيدة عن العالم كله .. وبحركة لا ارادية ،فتح كل منهما ذراعيه ، وغابا عن الوجود فى عناق حار ..

ولما خرجا من قلب الغابة بعد ساعتين من الحب الملتهب ، رأيا قرويا عجوزا مجعد الوجه ، ضيق العينين ، واقفا معتمدا على فأسه أمام باب بيته الريفى الصغير ، وكأنه ذئب عجوزامامجحره. واضطرم وجه « كريستين » خجلا ، ولاح الارتباك عليها ، ولكن «كلود »هتف قائلا فى ابتهاج :

ــ عجبا ! .. انه صديقنا العجوز « بواريت » .. اذن فهذا هو بيتك الصغير يا « بواريت » ..

فقال العجوز والدموع فى عينيه ان الساكن القديم رحل عن البيت دون ان يدفع المتأخر عليه من الايجار تاركا له الاثاثات القليلة التى كان يمتلكها ، ثم طلب منهما ان يدخلا قائلا :

ـ تفرجا على البيت من الداخل .. فلعلكما تجدان له ساكنة جديدا ، فلا شك ان الكثيرين من سكان باريس يتمنون ان يكون لهم بيت ريفي كهذا لا يزيد ايجاره السنوي عن ثلاثمائة فرنك ..

ودخلا البيت مع « بورايت » العجوز .. وكان بيتا صغيرا ، مكونا من صالة وغرفتين والمرافق ، تحيط به حديقة واسعة بها عدد من اشجار البرقوق والخوخ ، فضلا عن أشجار الورد ، وأغصان الزهور . وقال العجوز وهو يشير الى رقعة واسعة في الحديقة :

ـ وهذه الرقعة مزروعة بالبطاطس .. ان انتاجها في العام لايقل عن نصف طن .. وسوف أتركها للمستأجر بلا ثمن ..

ونظر « كلود » الى « كريستين » .. وفهمت هي نظرته ، وابتسمت وقد عاد وجهها الى الاحمرار .. هل يمكن أن يسعدهما القدر الى هذا الحد ، فيستأجرا هذا الكوخ الجميل .. في أحضان الطبيعة ليعيشا معا ، بعيدا عن ضجيج المدينة ، بعيدا عن المعارك الوحشية التي يخوضها الناس كل يوم من أجل لقمة العيش ؟

ولما وصلا مع العجوز « بواريت » ـ الذي كان والدا لمدام « فوشيه » ـ الى المحطة ، قال لهما في معرض الاغراء :

ـ يمكنني أن أؤجر لكما هذا الكوخ والحديقة بمائتين وخمسين فرنكا .. ان اشجار الفاكهة يمكنها ان تدر عليكما هذا المبلغ ..

وقال « كلود » :

ـ سوف نفكر في هذا الامر ..

ولما افترقا في مساء ذلك اليوم ،شعر كل منهما بالاسى والانقباض. لقد خامرهما احساس مشترك بأن الحياة .. بل كل ساعة في الحياة لن يكون لها طعم وهما بعيدان أحدهما عن الاخر

ومر أسبوعان كانت « كريستين » تأتي خلالهما الى «كلود» في كل يوم .. وكانا يقضيان في المرسم ساعة وبعض ساعة ينسيان خلالها كل شيء ويتمنيان لو ان حرارة الحب تذيبهما لتجعل منهما جسدا واحدا . !

وكانت « كريستين » ، كلما عادت الى قصر مدام « فانزيد » الموحش ، تحس بالمزيد من الانقباض والضيق ، وكأنها السجين الذي لا مندوحة له عن العودة الى ظلام السجن بعد استمتاعه بلحظات

خاطفة من نور الحياة ، ونار الحب !

وبعد اسبوع ثالث ، جاءت النهاية ذات مساء حين همس «كلود» فى أذنها بأن موعد انصرافها قد حان .. وهنا ازدادت عناقا له ، وقالت بصوت متهدج بالعاطفة المستعرة :

ــ لا .. لا .. لن استطيع العودة الى ذلك السجن .. لن استطيع .. دعنى أبق معك .. دعنى أعش بين ذراعيك الى آخر لحظة من عمرى ..

فضمها الى صدره بحنان ، وكتم شهقات بكائها بالقبلات ، وهمس قائلا :

ــ أتحبينني الى هذا الحد يا « كريستين » ؟.. الى حد التضحية بالثروة الطائلة التى قد توصى لك بها مدام « فانزيد »

فقالت بكلمات مبللة بالدموع :

ــ أتعنى مالها ؟.. اننى لم أفكر فى هذا يوما .. ولن يهمنى أكثر من أن أعيش معك .. ان احبك الى آخر لحظة من عمرى .. وان أموال الدنيا كلها لن تغرينى بالانفصال عنك ..

ثم أردفت قائلة :

ــ اننى لست ملكا لاحد .. وليست لى أسرة .. ومن حقى أن أتصرف كما أريد فى حياتى .. وأنا لا أرغمك على زواجى ، وانما أرجو منك فقط ان تدعنى أحيا معك ، ولا افترق عنك .. ابدا .. أبدا ..

وبعد برهة صمت عادت تقول وهى ترسل زفرة عنيفة تمزق القلب :

ــ ولكن لعلك على صواب .. لا ينبغى أن أتخلى عن هذه المسكينة العاجزة .. ولكننى أتألم .. أتألم الى حد العذاب .. اننى احبك بكل قطرة فى دمى يا «كلود» ... وان اللحظات التى ابتعد فيها عنك هى عذاب ابدى لم أعد أقوى على احتماله .. !

وعندئذ صاح « كلود » بلهجة حاسمة :

ــ لن تذهبى يا « كريستين » .. لسوف تبقين معى .. ولسوف نتزوج مدنيا فى خلال ايام قليلة .. وليحاول غيرنا أن يهتموا بشئونهم .. اننا لسنا مسئولين عن سعادة أو شقاء أحد .. حسبنا

أن نسعد ، وهذا من حقنا الطبيعى

وتم الاتفاق بينهما على كل خطوة .. وهكذا عادت « كريستين » اليه فى صباح اليوم التالى حاملة كل حاجياتها وملابسها ، وبعد أن تم الزواج أسرعا الى صاحب الكوخ العجوز « بواريت » فاستأجراه ، وشرعا فى أعداده وتجميله حتى غدا ــ من الداخل والخارج ــ عشا جميلا يليق بغرام فنان .. !

وكان «كلود» قد حرص خلال هذا كله أن يخفى الامر على جميع أصدقائه ومعارفه ، ومن ثم فوجئوا جميعا باختفائه من باريس دون أن يترك وراءه أى أثر .. على أن « بيير ساندوز » التقى بالعجوز « بواريت » ذات يوم مصادفة ، وكان يعرفه عندما كان يذهب مع صديقه « كلود » الى قرية بونكورت لقضاء يوم فى أحضان الريف ، ومنه عرف أن « كلود » يعيش مع زوجته فى الكوخ الذى يملكه العجوز ..

ولكن « كلود » لم يحاول ان يرد على خطابات « ساندوز » المتوالية التى كان يرسلها اليه راجيا منه السماح له بزيارته .. ولما يئس « ساندوز » من رد « كلود » عليه .. لزم الصمت ..

أما « كلود » فكان يعيش الاسابيع الاولى مع «كريستين» وكأنهما آدم وحواء فى جنة الارض . كانا يتنزهان فى القارب الصغير الذى اشترياه من العجوز « بواريت » ، ويتجولان فى الجزر المتناثرة على طول مجرى النهر ، وفى قلب الغابة ، وتحت الاشجار الكبيرة المورقة فى شهرى يولية واغسطس .. وكانا لا يفترقان ليلا أو نهارا .. يسيران معا يتبادلان الاحاديث والضحكات ويرتويان من رحيق الحب فى كل مكان .. ويطهوان الطعام حينا فى الكوخ ، وحينا فى الخلاء ، ويرقدان فى الليل تحت النجوم فى الشرفة العريضة .. فيتضاحكان كطفلين سعيدين ..

وكانت « كريستين » فى كل ليلة ، وحين تشعر أنهما أرتويا من رحيق الحب حتى التخمة ، تقول « كلود » وهى مستكنة بين ذراعيه :

ــ يا حبيبى .. عدنى بأن تبدأ العمل غدا ..

فيضمها الى صدره ويقول :

ـ أعدك يا حبيبتى ان أعمل غدا ..

ـ ولكن تذكر .. لسوف آغضب منك فى هذه المرة اذا اخلفت وعدك .. اننى لا أريد ان أشعر بأنى أقف فى طريق مجدك الفنى ..

فيقبلها بحرارة ويقول :

ـ لا تقولى هذا يا حبيبتى .. اننى جئت هنا للحب .. وللفن ..

ولكنهما فى اليوم التالى ينسيان كل شىء ، ويذهبان الى نزهة بالقارب ، ويأكلان فى أحدى الجزر .. ويستغرقان فى الحب وكأنهما عاشقان لم يمر على غرامهما المشبوب الا ساعات معدودة ..

على ان «كلود» بدأ فى محاولات للرسم .. وكانت « كريستين » ترقد على العشب بجواره ، ترنو اليه بنظرات مشحونة بالحب ، وبشفتين منفرجتين .. وكان هو يتوقف عن الرسم فجأة ، ويلقى بالفرشاة ويركع بجانبها ، ثم يأخذها بين ذراعيه .. وينسى كل شىء بعد ذلك !

ومع مرور الايام ، أصبح وقت « كلود » موزعا بين الحب ، والرسم .. فكان يخرج الى الطبيعة ليرسم ، وكانت هى تبقى فى الكوخ لتنظفه ولتطهو الطعام ، وتعنى بالحديقة ، وتجمع الثمار التى باعت محصولها الاول لبعض السائحين الانجليز بنحو أربعمائة فرنك ..

وفى خلال الشهور الاولى من الاقامة فى هذه الجنة ، لم يشاهدا أحدا يعرفه « كلود » الا مرة واحدة .. فبينما كانا يسيران فى حارة ضيقة تؤدى الى قصر يسمى فى القرية بقصر « لاروش » اخذ « كلود » « كريستين » بين ذراعيه وانهال على شفتيها بقبلات حارة طويلة ، وكأنه غاب عنها سنوات عديدة .. وفى غمار هذه العاطفة المشبوبة ، لم يريا ولم يسمعا وقع أقدام أربعة أشخاص كانوا يسيرون فى الطريق الضيق الى قصر « لاروش » وهكذا وقف الاشخاص الاربعة يشاهدون هذا المنظر العاطفى وقد قطب الرجل العجوز جبينه ، بينما وضعت الزوجة النحيلة يدها على فمها من فرط الذهول ، وحملقت الفتاة السقيمة بعينين جاحظتين الى مايجرى أمامها .. أما الرابع ـ وكان « دوباك » ـ صديق « كلود » فقد تسمر فى مكانه كأنما يأبى ان يصدق ما يرى .. !

وأفاق العاشقان أخيرا .. وتراجعا فى غير اهتمام ليفسحا الطريق للاربعة المشدوهين .. ومر العجوز كأنه لا يرى أحدا ، والقت الزوجة العجفاء نظرة سخط على العاشقين ، وتأملت الفتاة السقيمة صدر « كلود » وهى تلعق شفتيها بلسانها .. وتظاهر « دوباك » بأنه لا يعرف « كلود » .. !

وأخذ « كلود » يفكر فى أين رأى هؤلاء القوم من قبل ..! وفجأة تذكر أين رآهم ، وطافت بوجهه سحابة من الكدر مع الذكرى .. لقد تذكر أنه رأى هؤلاء الاربعة فى « القائمة الضاحكة » .. وتذكر أن هذا العجوز هو نفسه المليونير « مارجيلان » صاحب شركة الانشاء والتعمير ، والرجل الذى صاح فى القاعة طالبا رؤية ذلك الفنان الاحمق الذى رسم هذه اللوحة الشائنة !

والتقيا فى طريقهما بامرأة قروية ، فلما سألاها عن ذلك القصر الابيض المسمى قصر « لاروش » ، قالت انه ملك آل « مارجيلان » وأن المليونير انفق فى تشييده مليونا ونصف مليون فرنك ، وأثثه بمليون فرنك ..

وقال « كلود » وهما عائدان الى كوخهما :

ــ لن نسير فى هذه الناحية مرة اخرى حتى لا نلتقى بأولئك الوحوش الادمية .. نعم .. انهم وحوش ولاشك ..!

وفى منتصف شهر اكتوبر ، اكتشفت «كريستين» أنها حامل .. وفوجىء العاشقان بهذا التطور غير المنتظر .. لقد نسيا فى غمرة الحب ، ان هذا الحب قد ينتهى بالنتيجة التى ينتهى اليها عادة كل زوجين .. وشعرا بالاضطراب بضعة اسابيع ، ولكنهما لم يلبثا أن ألفا هذا الوضع ، وراحا ينتظران فى استسلام الضيف الجديد الذى شاءت الاقدار ان يشاركهما الحياة ..

وولد الطفل « جاك » فى منتصف شهر فبراير على يد قابلة من بلدة فيرنون . واستأنفت « كريستين » حياتها العادية بعد ثلاثة أسابيع من الوضع ، وأصبح وقتها موزعا بين العناية بالمولود ، وبين غرامها المشبوب بزوجها ، وبين رعايتها للكوخ والحديقة ..

ولكن حبها لـ « كلود » كان يطغى على كل شىء ، حتى على امومتها .. بل لقد غدت تغار من الطفل ، وتكره ان تنتزع بعض عواطفها

واستانفت « كريستين » حياتها العادية بعد ثلاثة أسابيع من الوضع ، وأصبح وقتها موزعا بين العناية بالمولود ، وبين غرامها المشبوب بزوجها ، وبين رعايتها للكوخ والحديقة ...



المركزة على « كلود » لتقدمها لطفلها .. كانت تحس ان « كلـــود » هو كل شيء فى الحياة ، وان ما عداه لا يكاد ان يكون له وجـــود فى نظرها ..

أما « كلود » فقد اتخذ من الطفل نموذجا لمزيد من اللوحات .. فكان يرسمه فى مختلف الاوضاع ، وفى مختلف الامـــاكن .. كان يرسمه فى الكوخ وهو يلعب ، ويرسمه وهو يرضع من ثدى أمه .. ويرسمه وهو مستغرق فى النوم .. ويرسمه وهو يحبـــو على العشب فى حضن الطبيعة ..

وامتلأت جدران الكوخ الداخلية بعشرات من اللوحـــات التى رسمها « كلود » من الطبيعة . وكانت حماسته للرسم قد استبدت به ، بدأت تستغرق كل وقته ، حتى شعرت « كريســتين » ذات يوم بأن حبه لفنه اخذ يطغى على حبه لها ، فقالت وهى تضمه الى صدرها تحت شجرة وارفة الظلال :

ــ انك تحبنى يا « كلود » .. أليس كذلك ؟.

ــ طبعا يا حبيبتى !.. كيف تسألييننى سؤالا كهذا ؟!.

ــ اذن قبلنى .. قبلنى بكل قوتك ..

وبعد ساعة نهضت وقالت وهى تتنهد فى عمق :

ــ سأدعك الان لرسمك .. وأرجو الا تتأخر عن موعد العشاء ..

وأقبل الشتاء الثالث ، وانصرم .. وفيما كان «كلود» يســـير فى طريق ضيق يفكر فى موضوع جديد للرسم بعد ان ضاق برســـم المناظر الطبيعية ، اذ به يلتقى فجأة بصديقه القـــديم « دوباك » مرتديا ملابس فاخرة ، وعلى رأسه قبعة عالية من الحرير ، وفى يده عصا أنيقة المقبض .

وهتف « كلود » قائلا :

ــ ها يا عزيزى « دوباك » .. هل تنوى ان تتجاهلنى هذه المرة ايضـــا ؟

فاعتذر « دوباك » قائلا :

ــ ان الموقف فى المرة السابقة لم يكن يسمح حتى بتبادل التحية العابرة . وقبل « كلود » اعتذاره برحابة صدر الفنان ، وسأله عن سبب وجوده فى هذه القرية وفى مثل هذه الملابس الانيقة ، فقـــال

« دوباك » :

ـ انني ذاهب لزيارة آل « مارجيلان » .. ولكن كيف حالك أنت ؟ .. لقد اعجبتني اللوحات التي ارسلتها للثعلب « مالجراش » ... وقيل لي انه اشتراها منك كعادته بأثمان زهيدة .. حسنا .. حسنا .. لسوف يأتي اليوم الذي تباع فيه احدى لوحاتك بعشرات الالوف من الفرنكات ..

وسار الصديقان يتبادلان الحديث .. وقال « دوباك » انه يعمل مهندسا معماريا تحت التمرين ـ بعد ان تخرج من مدرسة الفنون الجميلة العليا ، وأن ايراده الشهرى لا يتجاوز مائتى فرنك ، وأن والده الخباز قطع عنه المعونة الشهرية التي كان يرسلها اليه ..!

وقال « كلود » :

ـ وكيف حال « ساندوز » ؟

ـ انني لم أعد أراه كثيرا .. وفي آخر مرة رأيته ـ وكانت منذ شهر ـ سألني عنك .. انه حزين جدا لانك أغلقت الابواب في وجهه ولم تسمح له بالحضور لزيارتك ..

فقال « كلود » في احتجاج :

ـ ولكنني لم أغلق الابواب في وجه أحد .. انني أتمنى ان تحضروا لزيارتي بين الحين والاخر .. نعم ، لشد ما أشعر بالعزلة في هذه القرية الموحشة .

فقال « دوباك » بابتهاج :

ـ أهكذا ! .. ليس أحب الينا من أن نأتي لزيارتك ونستأنف صداقتنا السابقة .. لسوف أخبر « ساندوز » بهذا ، وتأكد أننا سوف نزورك في أقرب وقت . والان يجب ان أنصرف .. لقد حان موعد زيارتي لآل « مارجيلان » ..

وغمز « كلود » بعينه وقال :

ـ هل أفهم من هذا أنك تنوى الارتباط بهؤلاء الوحوش الآدمية يا عزيزى « دوباك » .. !

فاحمر وجه دوباك » وقال : نعم .. سوف ارتبط عمليا .. لقد وعدني « مارجيلان » باسناد منصب الى في شركته .. وطلب منى أن أزوره اليوم في قصره الريفي لاوقع العقد ، طاب يومك .. والى لقاء قريب ..

وبعد اسبوع كانت «كريستين» واقفة أمام محل للبقالة تشترى بعض حاجياتها عندما رأت شابا ملتحيا ، وسيم الوجه ، ضاحك النظرات يقترب منها بملابسه الباريسية ، ويقول بلهجة مهذبة لصاحب المحل :

ـ ألا تعرف أين يقيم المسيو « كلود لانتيير » ؟!

فأسرعت « كريستين » تقول :

ـ اننى فى الطريق الى بيته .. ويمكنك أن تأتى معى لأقودك اليه ..

وسار الغريب بجانبها وقد لاح عليه أنه عرفها ، اذ كان يبتسم لها بمودة بين الحين والاخر .. حتى اذا دخلت البيت ، قالت هاتفة :

ـ « كلود .. كلود » .. ها هو ذا ضيف جاء يسأل عنك ..

وما كاد «كلود» يرى الضيف حتى صاح وهو يعانقه بحرارة :

ـ أوه .. عزيزى « ساندوز » .. يالها من مفاجأة سارة .. اين « دوباك » ؟! ..

ـ عطلته بعض الشواغل فى اللحظة الاخيرة ، فأرسل يقول لى انه لن يستطيع الحضور معى اليوم ..

ـ حسنا .. حسنا .. يكفى أن اراك الان يا « بيير » .. لشد ما أنا مشتاق اليك ، ولشد ما أنا مبتهج لرؤياك ..

ثم استدار الى « كريستين » وأردف قائلا :

ـ هذه زوجتى الحبيبة يا « بيير » .. وهذا أحب الاصدقاء الى نفسى يا « كريستين » هلم تبادلا القبلات .. هلم ...

وكانت « كريستين » واقفة تبتسم والدموع تبلل عينيها من فرط تأثرها بسعادة زوجها .. ولكنها لم تتردد فى ارضائه ، فقدمت وجنتيها لصديقه الذى قبلها وهو يقول :

ـ لقد أدركت أنها زوجتك منذ اللحظة الاولى يا « كلود » ... أهنئك على حسن اختيارك وأتمنى لك دوام السعادة معها ..

وقالت « كريستين » لـ « ساندوز » وقد مالت اليه حين رأت مدى وفائه وحبه لـ « كلود » :

ـ اننى سعيدة بحبك لـ « كلود » .. وارجو ان تحضر لزيارتنا

كثيرا ، لانه بدأ يشعر بالضيق والوحشة هنا ..

ووعدها « ساندوز » بذلك ، ثم انحنى وقبل الطفل « جاك » الذى كان يتعثر فى مشيته ويتعلق بطرف سترته وقال :

ــ أهذا ابنكما الاول ؟!..

فقال « كلود » فى لهجة اعتذار :

ــ نعم .. انه الاول ، لقد فاجأنا الخبيث بوجوده قبل ان نشعر انه وجد فعلا ..

وضحك الجميع .. وسرد « كلود » على « ساندوز » فى كلمات قليلة قصة لقائه ب « كريستين » وتطور هذا اللقاء الى حب ، وتطور الحب الى زواج .. ثم الى حياة فى احضان الطبيعة ..!

وبعد يوم حافل بالمرح والبهجة وأطايب الطعام ، صحب « كلود » صديقه الحميم الى محطة السكة الحديدية بعد الغروب .. وهناك قال « ساندوز » قبل أن يستقل القطار :

ــ « كلود » .. سوف أطلعك على سر لا يعرفه أحد من « العصابة » .. لسوف أتزوج قريبا ؟!..

فضحك « كلود » وضربه على كتفه بمودة ، وقال :

ــ كأنك وجدت أخيرا الفتاة التى تستحق قلبك الكبير يا « بيير » ؟!

ــ نعم يا عزيزى « كلود » .. ان الزواج هو الحصن الوحيد الذى يستطيع فيه الفنان ان ينظم حياته ويكثر من انتاجه ، بعيدا عن التى تحاول ان تخضع قلبه ، او الاخرى التى تعمل على تحطيم روحه بذلك الحب الجنسى المستعر ..!

ثم راح يحدثه عن الفتاة التى اختارها .. فتاة بسيطة ، يتيمة الابوين ، متوسطة الجمال ، ولكنها عاقلة ومتزنة ، ولها مبادئها فى الحياة ..

وهنأه « كلود » .. وافترق الصديقان ..

ولكن « ساندوز » لم يكف عن زيارة « كلود » و « كريستين » كلما سنحت له الفرصة .. فكان ثلاثتهم يقضون فى تلك الزيارات أياما من أسعد أيام الحياة وأحلاها ..

على ان احساس « كلود » بالضيق ــ رغم هذا كله ــ كان يزداد

يوما بعد يوم ، وكانت أضواء باريس، وصخب الحياة فى باريس ، ورنين الضحكات فى حى مونمارتر .. والعشاء مع « العصابة » كل يوم خميس مساء فى بيت « ساندوز » .. كان هذا كله يتجمع فى أول الامر كهتاف هامس يدغدغ حواس « كلود » ويزيد من لهفته الى الحياة الباريسية الصاخبة ..

ولما ادركت « كريستين » بفطنتها ، وبعمق حبها ل « كلود » أن كل يوم يمر عليه فى هذه القرية النائية يزيد من شعوره بالوحشة ، فاجأته ذات يوم قائلة :

ــ استعد يا « كلود » .. لسوف نحزم أمتعتنا ونرحـــل الى باريس .. الى مرسمك ، الى عش غرامنا الاول .. بعد يومين ..

ولم يسع « كلود » الا ان يفتح ذراعية ، ويضمها الى صدره وهو يقول :

ــ يا أحب الناس الى قلبى ..!



الفصل السابع

الشيطانة اللعينة !

ما كاد « كلود » يعود الى باريس ، حتى انطلق فى شوارعها كالطفل السعيد ، تاركا « كريستين » فى المرسم ترتبه وتنظفه وتجعل منه عشا جميلا لحياة زوجين سعيدين .. وراح يبحث عن أصدقائه ، ولكنه لم يعثر الا على « جانيير » فى احدى مقاهى مونمارتر ، وقد علم منه انه هجر الرسم ، وتحول الى دراسة الموسيقى ..

وبعد سهرة قصيرة ، عاد الى « كريستين » ، وقضى معها أول ليلة لهما فى باريس ، بعد عودتهما من الريف .. وكان لا يكف عن الحديث عن آماله وأحلامه كلما سنحت لهما فرصة الكلام .. وعن اللوحة الفريدة التى ينوى أن يرسمها ويغزو بها تاريخ الفن ..

وفى صباح اليوم التالى ، غادر المرسم باحثا عن أفراد «العصابة» فذهب أولا الى صديقه « ماهو ديو » المثــال ، فى مصـــنعه الرطب الذى كان فى أول الامر مخزنا للخمور .. وهناك وجده راكعا أمام موقد يحاول اشعاله ، والتماثيل المختلفة الالوان والاحجام متناثرة هنا وهناك كأنها تسخر من صانعها الذى لا يجد قوت يومه أو وقودا للتدفئة ..

ورفع « ماهو ديو » وجهه الشاب ، وطرف بعينيه الذابلتين ، ثم قال وهو ينفخ فى كفيه ملتمسا الدفء :

ــ أوه .. أهذا أنت يا « كلود » .. وفى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح . هل تركت الريف نهائيا لتستقر فى باريس ؟ !

ــ نعم يا « ماهو ديو » .. جئت أمس .. وسوف أبقى ..

ــ أحسنت .. سوف نراك اذن كثيرا .. ادخل واغلق الباب ،

أن الجو فى الخارج بارد جدا ..

وتقدم « كلود » الى داخل القاعة التى كان كل شبر فيها ينم عن الفاقة الشديدة ، ومن ثم حاول أن يعتذر وينصرف ، ولكن «ماهوديو» صاح به :

ـ انتظر لحظة .. لسوف أفرغ حالا من اشعال هذا الموقد اللعين .. ان قاعة المثال تكون عادة شديدة الرطوبة بسبب الاقمشة المبللة التى نغطى بها تماثيل الصلصال ..

وحانت من « كلود » نظرة ، فرأى « شاين » ، صديق « ماهو ديو » الحميم جالسا فى ركن من القاعة ، يحاول اشعال المدفأة ويلقى فيها وقودا من القش المنتزع من أحد المقاعد القديمة ..

وحيا « كلود » « شاين » تحية عابرة ، لأن الصداقة بينهما لم تكن وطيدة ، ورد « شاين » على التحية بدمدمة غامضة ، وعاد « كلود » واستدار الى « ماهوديو » وقال :

ـ ماذا تفعل فى هذه الايام يا « ماهوديو » ؟

فهز « ماهوديو » كتفيه وقال :

ـ لا شيء .. لقد كانت سنة عجفاء ، اسوأ من السنة الماضية التى كانت هزيلة أيضا . لقد كسدت مبيعات تماثيل الملائكة والقديسين .. يبدو أن النزعة الدينية قد خفت حدتها كثيرا ولم يعد أحد يريد شراء التماثيل الدينية .. انظر الى هذا التمثال النصفى الذى أعمل فيه الآن .. ثم رفع الغطاء المبلل عن تمثال نصفى لرجل طويل الوجه ، مهوش اللحية ، ترتسم أمارات الغباء على كل خلجة فى وجهه ، ثم اردف قائلا :

ـ انه تمثال أصنعه لحساب المحامى المقيم فى المسكن المجاور .. هل رأيت فى حياتك أقبح شكلا منه ! .. ومع ذلك فقد اثار ضجة هائلة لأن الفم لا يعجبه .. ما أقسى السعى وراء لقمة العيش !

ثم قال ان لديه فكرة تمثال سوف يتقدم به الى « الصالون » فى هذا العام أو العام الذى يليه .. فكرة تمثال «امرأة تستحم» وهى واقفة . وقال انه سيحاول أن يبرز عليها شعورها بالرعدة وهى تحاول جس الماء البارد بقدميها .. ولا شك أن التموجات الدقيقة التى ستبدو سارية فى الجسم المرتعد ستزيد التمثال جمالا وروعة ..

وفى خلال هذا كان «شاين» قد اختفى فى غرفة النوم الواقعة وراء ستار يفصلها عن القاعة ، ثم ظهر مرتديا قبعته .. وبدون أن ينطق بكلمة . استدار وكتب بالطباشير على لوحة كبيرة مستندة الى الجدار ما يلى « سأذهب لشراء كمية من السجق .. أحرص على بقاء النار فى المدفأة مشتعلة »

وراقب « كلود » هذا كله فى دهشة ، ثم قال ل « ماهوديو » :

ثم غادر القاعة فى صمت ..

ـ ما معنى هذا ؟ ..

فقال المثال يفسر الموقف بكل هدوء :

ـ اننا متخاصمان .. ولا نتفاهم الا عن طريق الكتابة كالبكم !

ـ منذ متى ؟ ..

ـ منذ ثلاثة أشهر ..

ـ وتنامان معا فى سرير واحد ؟

ـ نعم .. ومع امرأة واحدة !

وانفجر « كلود » ضاحكا .. وأمعن فى الضحك وهو ينصت الى « ماهوديو » عندما راح يتحدث عن جارتهما « ماتيلدا » زوجة بائع البخور والاعشاب المعطرة . قال انها تأتى اليهما من حين لآخر وتسلم نفسها للموجود فى القاعة من الصديقين ، فاذا وجدتهما معا ، خرج أحدهما يتجول قليلا ، ثم يعود ليخرج الآخر لمدة نصف أو ساعة . واستمر هذا التقليد ساريا بينهما حتى بعد أن اشتد الخلاف بينهما وانتهى الى الخصام .. !

واختتم « ماهوديو » حديثه قائلا :

ـ لعلك لا تصدق ما أقول .. ولكنها الحقيقة . ولعلك تضحك ـ أو تبكى ـ حين ترانا جالسين جائعين ، لا نملك مليما ، ولا نجرؤ على الخروج فى الجو البارد ونحن على الطوى . وقد نمضى على هذه الحال يوما أو يومين حتى تعطف « ماتيلدا » علينا ، أو حتى تعطف على نفسها فتأتى الينا بالطعام والشراب والا فلن تجد منا أية استجابة لرغباتها .. هذه الشيطانة اللعينة !

وقال « كلود » وهو يتأمل لوحة رسمها « شاين » منقولة عن لوحة خالدة من لوحات اللوفر تسمى « مانتينا »

ـ أقسم أن «شاين» فى رسمه لهذه اللوحة أبرع من «وبلاكردا» .! ولست أدرى السر فى عجزه عن جمع ثروة من فنه !

فهز « ماهوديو » كتفيه وقال :

ـ يبدو لى أنه جاء متأخرا عن زمنه اربعمائة عام ..

وتلفت « كلود » حوله وقال فجأة :

ـ لماذا تأخر فى احضار السجق .. ؟

فضحك « ماهوديو » وقال :

ـ لا شك أنه انتهز هذه الفرصة وذهب الى « ماتيلدا » ليظفر بها من ورائى !

ثم أردف قائلا وهو يزداد ضحكا :

ـ وبعد أن يعود ، قد تأتى وراءه لتنال المزيد ..

وسمع الصديقان فى تلك اللحظة وقع أقدام « شاين » وهو مقبل ، فقال « ماهوديو » :

ـ ها هو ذا آت .. انتظر لحظات وسوف ترى « ماتيلدا » آتية فى أعقابه .. !

ودخل « شاين » يحمل السجق ، وبدون أن يلفظ كلمة ، بدأ يضعه فى مقلاة ليطهوه على نيران المدفأة .. وما هى غير لحظات حتى دخلت «ماتيلدا» .. وكانت امرأة فى نحو الثلاثين من عمرها ، نحيلة الجسم ، مصبوغة الشعر ، واسعة العينين ، نارية النظرات ، وكأنها تريد أن تلتهم كل رجل تراه .. وكانت رائحة البخور والاعشاب المعطرة تفوح من ملابسها وتملأ الجو بلون من الشذى الحاد المسكر ..

وأقبلت على « ماهوديو » فقبلته بحرارة أمام « كلود » .. ثم استدارت نحو « كلود » ، وصافحته وهو تقول ضاحكة :

ـ لماذا لا تأتى وتقيم مع صديقيك يا عزيزى ؟!

فقال لها « ماهوديو » وقد فهم غرضها :

ـ انه لا يصلح للاقامة هنا ؟ لقد تزوج اخيرا !

فلوت شفتيها اشمئزازا وتمتمت :

ـ لو أن كل الشبان يتزوجون بهذه السرعة لما صار للحياة طعم !

ثم أردفت قائلة وكأنما تريد أن تغير الموضوع :

ـ أتدرون ماذا وجدت فى مطبخى .. وجدت صندوقا من البسكويت

بالزبدة .. وقد جئت به لنأكله معا ..

فقال « ماهوديو » :

ــ لا .. اننى سأكتفى بالتدخين ..

ولما رأى « كلود » يهم بالانصراف قال له :

ــ أهكذا سريعا ؟ ! ..

ــ نعم .. أريد أن أملأ رئتى بهواء باريس .. أريد ان اعود الى الماضى بكل ما فيه من آلام وآمال ..

وقال « شاين » للمرة الاولى :

ــ نرجو أن نراك قريبا ! ..

ــ هذا ما أرجوه أيضا .. ولعلنا نلتقى فى مساء الخميس حول مائدة العشاء بمسكن « ساندوز » ..

وفيما هو يغادر باب المصنع ، اذا به يصطدم بشاب كان يختلس النظر من وراء زجاج النافذة الى ما يجرى داخل القاعة .. وهتف « كلود » حين رأى الشاب :

ــ عجبا ! .. انه « جورى » . ! ماذا تفعل هنا ؟

وقال « جورى » المرتبك من أثر المفاجأة :

ــ لا شىء .. كنت أمر من هنا ، ورأيت أن اعرف هل صديقانا « ماهوديو » و « شاين » موجودان أم لا ..

ثم أخفت صوته وحك أنفه الكبير الاحمر واردف قائلا وقد أخذ يتلفت حوله كأنما يخشى أن يسمعه احد :

ــ الواقع أنى كنت أريد أن استمتع بالنظر الى ما سيجرى داخل القاعة بعد ان رأيت « ماتيلدا » تسرع الى صاحبينا ..

ثم سار بجانب « كلود » يحدثه بما يجرى فى متجر البخور ، فقال ان « أفراد العصابة » جميعا ، وعشرات من الفنانين الصغار ، يزورون « ماتيلدا » بعد ان انتشرت بينهم انباؤها .. ومن ثم أخذ الجميع يتسابقون اليها ..

وقال « كلود » :

ــ وانت يا « جورى » ؟ !

فابتسم « جورى » قائلا :

ــ اننى أتردد عليها اكثر من مرة فى اليوم الواحد .. لقد عرفت

نساء لا حصر لهن .. ولكننى لم أعرف امرأة مثل « ماتيلدا » .. ولعل أروع ما فيها انها تحت أمرك .. فى أى وقت .. !

ولما رأى امارات الامتعاض على وجه « كلود » قال :

ـ انها ليست جميلة اذا قارناها بالغانيات الفاتنات .. ولكن فى عواطفها المشبوبة لونا من السحر الذى يجذب أمثالنا من الفنانين كما يجذب العسل الذباب .. ولا تضحك ، فهذه هى الحقيقة .. اننى فى كثير من الاحيان لا أستطيع أن أنام الا اذا ذهبت لزيارتها ، فاذا لم أجدها او اذا وجدتها مشغولة مع أحد الزملاء انتظرتها ..

وفجأة قطع « جورى » حديثه ، وأعرب عن دهشته لرؤية « كلود » فى باريس بعد هذه الغيبة الطويلة ، وما أن علم أن « كلود » عاد الى باريس ليستقر فيها حتى هتف قائلا :

ـ والآن سأخبرك بما يجب أن تفعل .. سأدعوك لتناول الغداء مع « ايرما بيكو » ..

فجفل « كلود » من هذه الفكرة ورفض الدعوة باصرار عجيب ، واعتذر قائلا انه ليس مرتديا الملابس اللائقة ، فقال له « جورى » :

ـ وماذا يهم ؟ .. ان « ايرما » ستبتهج اشد الابتهاج حين تراك .. انها لا تكف عن الحديث عنك .. ويبدو أن تحفظك معها سيفقدها عقلها ويزيدها اصرارا على أن تنالك يوما مهما كان الثمن .. هلم ولا تكن أحمق .. انها تنتظرنى هذا الصباح ، ولا شك أن خير هدية يمكن أن أحملها معى اليها ، هى .. أنت !

وأمسك بذراع « كلود » فى قوة ، وأبى أن يتركه ، وسار معه نحو ميدان المادلين ، وراح يحدثه عن غرامياته ومغامراته العاطفية . وكان « جورى » عادة شديد التحفظ فى الحديث عن غرامياته ، ولكنه كان فى تلك اللحظة منتشيا بالحياة ، مقبلا عليها .. فأخذ يقص على « كلود » آخر أنباء علاقته بمغنية الاوبرا ، وبالممثلة الناشئة .. ثم استطرد يقول انه يعيش حياته لهدف واحد ، وهو النساء .. النساء من كل لون وصنف ، لا يهمه الشكل ، ولا البيئة ، ولا النشأة ، ولا المركز .. انه يسعى الى المرأة كامرأة فقط ، يسعى اليها بكل عواطفه المستعرة التى لا تهدأ أبدا .. وهو يجوب الارصفة ليلا ، ولا يعود الى مسكنه الا ومعه امرأة ، غانية ، أو من بنات الهوى .. جميلة او قبيحة ،

عجوزا أم شابة .. حتى لا يبقى الليل كله ساهرا !

وفيما هما يقتربان من شارع دى ماسكا ، قال له « كلود »

ـ اذن فأنت الذى يحتفظ بـ « ايرما بيكو » هذه الايام !

فهتف « جورى » قائلا فى جزع :

ـ أنا ؟ .. اذن فأنت لا تعرف اخر تطورات الحياة مع « ايرما » .. انها تقيم الان فى مسكن .. أعنى فى قصر صغير ايجاره السنوى عشرين الف فرنك ، وتبحث عن قطعة أرض فى قلب باريس لتبنى عليها قصرا خاصا بها يقال أنه سيتكلف نصف مليون فرنك ، لا .. اننى اتغدى معها أو اتعشى بين الحين والاخر .. وهذا يكفى ..

فقال « كلود » باسما :

ـ هذا فضلا عن ..عن .. انت تفهم طبعا !

فضحك « جورى » وقال مراوغا :

ـ يا غبى ! .. هل هناك من يكره هذا ؟!

وبذل « كلود » محاولة اخرى لينصرف ، زاعما ان زوجته تنتظره على الغداء ، ولكن « جورى » اصر على اصطحابه ، وأخيرا وافق « كلود » .. وما لبث أن وجد نفسه يسير فى ردهات وممرات قصر صغير جميل وراء تشريفاتى فى ملابس رسمية .. وهناك ، فى قاعة استقبال كبرى ، رأى « ايرما » تستقبله كملكة غير متوجة وهى تبتسم فى عينيه قائلة :

مرحبا لقد عاد الرحالة أخيرا .. !

وأخذت ترحب به وبـ « جورى » حتى هدأت نفسه . وكان ينظر اليها وهو لا يكاد يصدق عينيه .. ذلك لانها كانت قد تغيرت ـ خلال السنوات الاخيرة ـ الى حد أنه ماكان ليعرفها لو رآها مصادفة فى الطريق ..

لم تعد بنت الليل الرخيصة التى تنتقل من مائدة الى اخرى فى الحانات الرخيصة باحثة عن رجل ـ أى رجل ـ يهيىء لها مكانا للمبيت .. وانما تحولت الى « سيدة صالون » من الطراز الاول .. تتحدث بحساب ، وتتحرك بحساب ، وتصفف شعرها على نمط سيدات باريس الارستقراطيات ، وتقيم فى كل اسبوع حفلة استقبال رائعة يحضرها العظماء ورجال السياسة والمال .. أى أنها

حققت فى ثلاثة أعوام حلمها لتكون احدى غانيات باريس

ولما قال « جورى » ان « كلود » يريد أن يرسل أحد الخدم الى زوجته ليخبرها انه سيتأخر فى العودة ، رفعت « ايرما » حاجبيها — بحساب — وقالت بصوت ينم عن دهشة الملكة من غرابة تصرف أحد رعاياها :

— هل تزوجت ؟ .. أحقا !! ..

فقال « كلود » بحدة :

— نعم .. حقا ..

والتفتت الى « جورى » لتتأكد .. وابتسم ، وفهمت .. وقالت ل « كلود » :

— انك لا شك تعنى أنك تعيش مع .. عشيقة .. هذا هو المعقول .. ومع ذلك كانوا يشيعون عنك أنك لا تحب النساء .. ! هل تعرف اننى مستاءة منك ؟ اننى حقا شديدة الاستياء منك .. لقد اعتدت أن تعاملنى وكأنك تخشى أن التهمك .. هل تذكر ؟ يبدو أنك لا تزال تفزع منى ، لانك متراجع عنى .. هل أنا دميمة الى هذا الحد ؟!

وكانت قد اخذت يديه فى يديها ، ورفعت وجهها اليه ، وركزت نظراتها على عينيه كأنما تأمره بأن ينهال على شفتيها تقبيلا ، ولكنه تجاهل هذا الامر ، أو هذه الرغبة الآمرة ، وبدت امارات الالم فى عينيها من موقفه ، لانها كانت مصرة على الايقاع به ، فلما رأته يزداد نفورا ، تركت يديه وقالت وهى تتنهد :

حسنا .. لنرجىء هذا كله الى وقت آخر .. !

وبعد الزجاجة الثانية من أحد ألوان الشراب تحررت « ايرما » من لبحمل اليها رسالته . جلست « ايرما » مع ضيفيها حتى حان موعد الغذاء ، فتقدمتهما الى قاعة فاخرة للطعام ، حيث شاهد « كلود » المائدة محملة بألوان وفنون من الطعام والشراب والفاكهة ، وكأنها

وبعد ان ارسلت سائق مركبتها الخاصة الى زوجة « كلود » تحفظها ، وعادت الى طبيعتها الاولى وقد توهج وجهها ، وقالت :

— هلم يا صديقاى وتحدثا بكل ما يعن لكما من ألوان الحديث

فما أحوج الانسان الى التحرر من قيود المجتمع ليعيش على طبيعته ..
هلم نتحدث عن ذكريات ليالينا في مواخير مونمارتر ..

وقال « جوري » في معرض الحديث :

ـ انني آسف يا «ايرما» لانني لم أشتر الكتاب الذي طلبته مني، كنت في طريقي الى شرائه الليلة الماضية عندما التقيت فجأة بـ « فاجيرول » ..

فقالت في تهكم :

ـ انك كاذب .. لقد كان « فاجيرول » معي هنا طيلة الليلة الماضية ..

ثم استدارت وقالت لـ « كلود » :

ـ انك لا تعرف الى أي حد يهوى « جوري » الكذب .. انه كذاب كأية امرأة .. يكذب حبا في الكذب . والحقيقة ، أنه من فرط بخله ، يأبى أن يشتري لي كتابا ثمنه عشرة فرنكات .. وعندما يزورني يزعم في كل مرة انه اشترى لي باقة من الزهور ، ولكنه نسيها مرة في المركبة ، ومرة عند الحلاق .. وهكذا . اذا كان في باريس كلها رجل تحبه المرأة لذاته ـ لا لماله ـ فهو « جوري » !

وضحك « جوري » عاليا في استياء ، وقال وهو ينفث دخان سيجاره :

ـ هل افهم من هذا انك تعيشين هذه الايام في احضان « فاجيرول » ؟

فصاحت غاضبة :

ـ لا .. أبدا .. واذا حدث هذا ، فما شأنك . ان « فاجيرول » لم يعد يهمني في قليل او كثير . وانا اذا اردت « فاجيرول » فيكفي أن أرفع اصبعي ليأتي ويلعق حذائي .. آتفهم :

وأردفت قائلة :

ـ على كل حال يجب أن تعرف انني ـ وغيري ـ تعلم السر الذي يجعلك تتغنى بعبقرية « فاجيرول » في مقالاتك النقدية ..

ورأى « جوري » ان الحديث سيتحول الى معركة ، ومن ثم قرر أن يتراجع بانتظام ، فقال بصوت رقيق :

ـ أي سر تعنين ؟! ..

ـ أعنى أنك تقيم الدنيا وتقعدها اعجابا بعبقرية « فاجيرول » حتى يذاع اسمه ، وترتفع أثمان لوحاته ، ويكون لك فى النهاية نصيب من الارباح ٠٠ أليست هذه هى المناورة الرخيصة التى تقوم بها على حساب الفن الرفيع ؟!

ولم يستطع « جورى » أن يقول شيئا ٠٠ وقد ساءه اشد الاستياء أن تهاجمه « ايرما » على هذا النحو أمام « كلود » ٠٠ ولكنه قال فى النهاية باسما :

ـ أتعرفين يا « ايرما » أن الغضب يزيدك جاذبية ؟!

وضحكت الغانية ٠٠ وكان الشراب قد بدأ يلعب برأسها ، وعادت ترنو الى « كلود » بنظرات حالمة وتقول والسيجارة فى فمها :

ـ كيف عثرت على هذه الفتاة التى تقول انها زوجتك ؟!

وفوجىء « كلود » بهذا السؤال ، الا انه تمالك نفسه بسرعة وأجاب قائلا :

ـ انها من الريف ٠٠ وجاءت الى باريس لتعمل قارئة لسيدة مكفوفة البصر ، وهى فتاة عادية فى كل شىء ٠٠!

ـ جميلة ؟! ٠٠

ـ طبعا ٠٠ الى حد كبير ٠٠

وعادت النظرة الحالمة الى عينيها ثم قالت :

ـ يمكنك أن تعتبر نفسك محظوظا ٠٠ فاننى لا أرى فى هذه الايام فتاة من هذا النوع ٠٠ لاشك أن الاقدار صنعتها خصيصا لك !

وفجأة جمعت نفسها ونهضت قائلة :

ـ ان الساعة تقترب من الثالثة ، ويجب أن أصرفكما يا صديقاى لانى على موعد مع مهندس معمارى سوف يطلعنى على قطعة أرض بالقرب من بارك مونكو حيث يقال ان مجموعة من القصور الجديدة سوف تشيد حوله ٠٠

وحين وقفت تودعهما بالباب ، صافحت « كلود » وأطالت النظر فى عينيه ، ولكنها لم تقل شيئا ٠٠

وشعر « كلود » ـ فى الطريق ـ بالاسف لانه تحدث عن « كريستين » مع « ايرما » ٠٠ وقرر فى ذات نفسه ألا يضع قدمه مرة أخرى فى أى بيت تكون فيه ، حتى ولو كان قصرا فى جنة الخلد !

وقال « جورى » وهو يشعل سيجارا من مجموعة السيجار التى اخذها من صندوق « ايرما » :

ــ انها فتاة رائعة ٠٠ « أيرما » هذه ٠٠ يمكنك أن تتغدى معها ، وأن تتعشى معها ، وأن تقضى الليل فى فراشها ٠٠ ثم ينصرف كل منكما الى حال سبيله !

ولم يجب « كلود » ـ ولكنه كان يشعر بالعار والقلق بحيث أراد أن يعود فورا الى « كريستين » ليغسل بطهرها ونقائها هذا الاحساس بالعار ٠ ولكن « جورى » جذبه الى شارع جانبى وقال :

ــ لا يجوز أن تمر بالقرب من مسكن استاذك « بوجراند » دون أن نعرج عليه ونحييه ٠٠

ورحب « كلود » بالقيام بهذه الزيارة ٠٠ وفتح الفنان الكبير باب مسكنه بنفسه ، وكان يحمل أدوات الرسم بين يديه ، فلما رآهما هتف قائلا فى سرور :

ــ أوه ٠٠ ما أسعدنى بهذه الزيارة ؟ ٠٠ كنت أسأل عنك يا عزيزى « كلود » ، وقد قال لى بعضهم انك عدت اخيرا الى المدينة ٠٠ كيف حالك ؟!

ثم صافح « جورى » وأردف قائلا :

ــ وانت يا عزيزى « جورى » ؟ ٠٠ لقد قرأت مقالاتك الاخيرة ٠ وأشكرك على العبارات الطيبة التى امتدحتنى بها ٠٠ هلم الى الداخل، انكما لن تزعجانى او تعطلانى ٠٠ اننى أحاول الاستفادة من كل لحظة من ضوء النهار ٠٠ وان الوقت بعد ذلك لمتسع ، وما اقصر النهار فى هذا الفصل من السنة ٠٠

وعاد يعمل فى لوحة على الحـــــامل تمثل امرأتين : أم وابنتها جالستان تخيطان ثوبا بجوار نافذة ينسكب منها ضوء الشمس ٠٠

وقال « كلود » وهو يرقب استاذه الكبير اثناء العمل :

ــ رائع يا سيدى ٠٠ رائع ٠٠

فقال « بوجراند » وهو يهز كتفيه دون أن يلتفت :

ــ انها ليست شيئا ضخما ٠٠ اننى اشغل بها وقتى وحسب ٠٠ لقد نقلتها عن الحياة عندما كنت أزور بعض اصدقائى ٠٠ وانا الان أرسم فيها الخطوط الاخيرة فقط ٠٠

فقال « كلود » بحماس شديد :

ـ ولكنها جوهرة ·· لقد توافرت فيهـــــا كل عناصر الفن ·· الصدق والبساطة وجمال توزيع الضوء · وان البساطة فيها هى العنصر الغالب الذى يبهر الانفاس ··

فتراجع « بوجراند » الى الوراء قليلا وراح يتأمل اللوحة بعينين نصف مغمضتين ثم قال بصوت ينم عن الابتهاج :

ـ هل حقا اعجبتك يا « كلود » ؟ ·· ان هذا يسرنى جدا ·· لانى كنت اعتقد انها لوحة رديئة ·· نعم ، لشد ما أحس بالتعاسة كلما خيل الى انى استنفدت كل مواهبى فى الرسم !

وقال « جورى » محاولا التخفيف من الام الفنان الكبير :

ـ هل اشترى أحد هذه اللوحة يا سيدى ·· ؟

فقال « بوجراند » متمهلا :

ـ لو شعرت يوما أن ورائى تاجرا يريد شراء احدى لوحاتى التى أعمل فيها ، لما استطعت ان اتمها ·· اننى اعمل فقط عندما أجد لدى الرغبة للعمل · أما هذا اللون الجديد من التجارة فى اللوحـــات الفنية الذى انتشر فى هذه الايام ، فليس لى فيه مجال ··

ثم اردف قائلا وهو يشير الى « جورى » :

ـ والاسوأ من هذا أن رجال الصحافة قد أخذوا على عاتقهم التفنن بعبقرية كل من أمسك فرشاة ورسم شيئاً ·· اننى كلما قرأت عن هؤلاء العباقرة الجدد ، لا أملك نفسى من الضحك عاليا !

فقال « جورى » مدافعا عن نفسه :

ـ ان المسألة لا تعدو اختلاف وجهات النظر ·· وكل حقيقة لها جانبان بحيث يستطيع كل انسان أن يراها من الجانب الذى يرضيه

ـ نعم ·· نعم ·· صدقت ··

ثم التفت الى « كلود » وقال :

ـ ما رأيك يا « كلود » فى لوحة « فاجيرول » الاخيرة ·· هل رأيتها ·· ؟

فلما أومأ « كلود » برأسه ، قال « بوجراند » :

ـ وهل لاحظت أنه ينتهج فيها أسلوبه الجديد ·· الواقعيـــــة الطبيعية ؟

وهز « كلود » كتفيه » والتزم الصمت ..

ورأى « جورى » أن يدافع عن « فاجيرول » فقال :

ــ سمعت أنه وقع عقدا مع تاجر اللوحات الجديد « نوديث » ..

وكان « نوديث » قد نزل هذا الميدان من التجارة بأسلوب جديد يختلف تماما عن اسلوب « مالجراس » وأمثاله .. وكان اسلوبه يتلخص فى البحث عن الرسامين الذين يبشرون بالنجاح ، فيـــوقع معهم عقودا بأن يشترى كل انتاجهم باسعار لا يحلمون بها .. اذ كان يشترى اللوحة التى يعرض فيها « مالجراس » او امثاله عشرين أو ثلاثين فرنكا ، بمائتين أو ثلاثمائة فرنك .. وبعد أن يجمع اكبر عدد من لوحاتهم ، يبدأ فى القيام بحملة من الدعاية لهم عن طريق نقاد وصحفيين من نوع « جورى » .. وهكذا يتمكن من بيع اللوحات المختزنة لديه بأسعار خيالية بعد أن يشتهر أصحابها وتغدو أسماؤهم على كل لسان ..

وقال « بوجراند » وهو يبتسم :

ــ لقد حاول « نوديث » أمس أن يشترى هذه اللوحة بأى ثمن .. عرض على أن أحدد الثمن الذى أريده ، فأبيت .. اننى لا استطيع أن أتاجر بفنى .. لا أستطيع .. وقد اكون مخطئا .. ولكن هذه هى طبيعتى .. !

وغادر « كلود » مسكن استاذه وهذه الكلمات الاخيرة ترن فى اذنيه :

« لا استطيع أن أتاجر بفنى ؟ »

وبعد أن أمضى السهرة مع أصدقائه فى حى مونمارتر ، عاد الى مرسمه منتشيا ، محموما بأنفاس باريس .. وظل يخرج فى كل يوم صباحا ، ولا يعود الا فى ساعة متأخرة من الليل ، وكأنما يحاول أن يعوض السنوات الثلاث التى عاشها بعيدا عن عاصمته المحبوبة ، أو كانما يحاول أن يبحث عن شىء .. عن فكرة جديدة ، يتخذها موضوعا لرسم لوحة يهتز من عظمتها الوسط الفنى .. !

الفصل الثامن

قلب باريس

أخذت الاسابيع تمر سراعا ، وتحولت الى شهور ، واستطاع «كلود» فى الشهرين الاخيرين ، قبل افتتاح « الصالون الفنى » ان يتقدم بلوحة تمثل مقهى فى حى مونمارتر .. ولكن اللوحة رفضت . وفى العام التالى تقدم بلوحة أخرى تمثل ميدانا فى باريس ، فى ساعة الظهيرة ، وكان مصيرها الرفض ايضا .. وفى العام العاشر للصالون الفنى ، تقدم بلوحة ثالثة تمثل قنطرة على نهر السين .. ولكن أعضاء لجان التحكيم أصروا على رفضها .. وكان « كلود » فى خلال هذا كله يرسم لوحات صغيرة ويبيعها لاى تاجر حتى يحتفظ بمستوى معينا من المعيشة لزوجته وابنه « جاك » الذى نما ضعيفا وكأن جو باريس لم يلائمه ..!

وظل « كلود » يعيش فى صراع بين اليأس والرجاء .. وفى كل مرة كانت ترفض فيها احدى لوحاته ، يبدأ من جديد وهو يقسم ثائرا انه لن يهدأ عن تحقيق أمله أو يموت ..

وظلت « كريستين » على حبها له ، ولم تحاول يوما ان تعترض على أسلوبه فى الحياة .. كانت الزوجة المحبة العطوف فى الشهورالتى يخامره فيها اليأس ، فينطلق هائما فى شوارع باريس ومقاهيها .. وكانت الزوجة المحبة العطوف فى الاشهر التى تنتابه فيها حمى العمل فلا يكاد يهدأ الا ساعات قليلة من الليل ..

وفى العام السادس من عودته الى باريس ، خرج مع «كريستين» تاركين «جاك» فى رعاية مدام « جوزيف » ـ حارسة الباب ـ وسارا يتجولان على غير هدى . وكان رغم هذه السنوات الطوال لا يزال يؤمن بأنه سوف يهتدى ذات يوم الى الفكرة التى سيغزو بهاالوسط

الفنى بعمل رائع .. وفيما هو يسير على قنطرة سان بيير التى تقع فوق نهر السين بالقرب من الميناء النهرى المسمى « قلب المدينة » ، اذا به يتوقف فى وسط القنطرة ، ويرنو الى الحركة الدائبة فى الميناء .. الى الارصفة والى البضائع المتراكمة ، والى الرافعات ، والى العمال .. والى السفن النهرية الراسية ، والى الابنية التى تتكون منها « خلفية » الصورة ، ثم الى الجزيرة الصغيرة التى تقع فى وسط النهر بالقرب من الميناء ..

وظل واقفا مشدوها لاهث الانفاس ، كأنما انتقل فجأة الى عالم جديد غريب .. وكان فى أعماق نفسه يتساءل : كيف لم ير هذا المنظر من قبل رغم مروره على القنطرة عشرات المرات ؟.

وقالت « كريستين » له حين طالت وقفته :

ــ لقد حان وقت العودة ، وأخشى ان يكون « جاك » فى حاجة الينا .. إن صحته ليست على ما ينبغى كما تعلم ..

ولكن « كلود » ظل متسمرا فى مكانه وقد توهجت وجناته كأنما تنعكس عليها ألسنة من اللهب المشتعل فى أعماقه ، وتفصد العرق عن جبينه وهو يشير الى الميناء قائلا :

ــ انظرى .. انظرى يا « كريستين » الى قلب باريس النابض ؟

وخشيت « كريستين » أن يكون « كلود » قد أصابه مكروه من فرط انفعاله ، فقالت فى جزع واشفاق :

ــ هلم يا « كلود » .. هلم الى البيت .. فانى اريد العودة بسرعة . فتمتم قائلا وهو يدعها تأخذ بذراعه وتمضى به :

ــ يا للروعة .. يا للجمال ؟!.

وظل « كلود » طيلة المساء صامتا مستغرقا فى أفكاره .. لم يلفظ بكلمة اثناء العشاء ، ولم ينطق بحرف وهو يجلس بجوار المصطلى الى ساعة متأخرة من الليل .. ولما حاول « جاك » ان يستدرجه ليلعب معه ، نهرته أمه ، وطلبت منه أن يهدأ أو يأوى الى فراشه ..

وكان الطفل يعيش فى ضياع بين والد لا يستقر على حال ، وبين أم مشغولة دائما بزوجها ، دون أن تهتم بأبنها الا اذا مرض !

وأخيرا نهض « كلود » وأوى الى فراشه حيث استغرق فى نوم

عميق ، وكأنما أراد جسمه المرهق بالانفعالات المتضاربة ان يظفر بحقه من الراحة رغم كل شيء ..

وفى صباح اليوم التالى أسرع بارتداء ملابسه وهو يصفر فى سعادة ثم التهم افطاره بسرعة ، وانطلق مغادرا المرسم بعد ان طبع على جبين « كريستين » القبلة المعتادة ..

ورأت « كريستين » نفسها فى مواجهة يوم اخر عصيب . ولم يكن سبب قلقها هذه الحالة الغريبة التى طرأت على « كلود » ـ لانها اعتادت على غرابة اطواره ـ وانما كان هناك سبب اخر حرصت على اخفائه عنه ، كانت تعلم انها ـ لاول مرة منذ زواجها به ـ تواجه الفقر الشديد .. ولو كان الامر مقتصرا عليها ، لما أهمها الى حد كبير ، ولكن كانت تهيىء لـ « كلود » حياة بعيدة عن مشاكل الفقر والحاجة ولم يبق لديها من النقود الا فرنك واحد ، بعد انفقت آخر فرنك كان لديها فى اليوم السابق .!.

وكان لا يزال أمامها أكثر من عشرة أيام حتى تستطيع أن تأخذ شيئا من أرباح رأس المال ، أى من الالف فرنك التى يعيشان عليها طيلة العام !

وبعد ان فكرت طويلا فيما ينبغى أن تفعل حتى يعود « كلود » مساء فيجد طعام العشاء معدا ، قررت ان تبيع الثوب الاسود الفاخر الذى كانت مدام « فانزيد » قد أهدته اليها ..

ورأت أن تمسك يدها فى النفقات حتى يمكنها ان تجعل الستين فرنكا ـ ثمن الثوب ـ تكفى الاسرة اطول مدة ممكنة ، ومن ثم اقتصرت فى وجبة العشاء على حساء الخضر والبطاطس المقلوه. وعاد « كلود » ـ كما توقعت ـ فى ساعة متأخرة ، وكان وجهه ينم عن السعادة لسبب خفى ، وكان ـ كعادته فى مثل هذه الاحوال ـ عارم الشهية ، الا انه فوجىء بالطعام الهزيل امامه ، فصاح مغضبا :

ـ أهذا كل ما لديك ؟ اما كان يمكنك أن تشوى لنا قطعة لحم .. أم لعلك اشتريت مزيدا من الاحذية ؟!

وغمغمت باجابة غامضة دون أن تجرؤ على ذكر السبب الحقيقى الذى أرغمها على تقديم هذا الطعام البسيط ، الا ان عبارته الاخيرة الجارحة آلمتها الى حد كبير .. وازداد شعورها بالالم حين

أخذ « كلود » يسخر من حبها للاحذية الجديدة ، ومن بعثرتها المال على التوافه ، ومن عجزها عن موازنة ميزانية البيت !

ورأى « جاك » ـ الصبى ـ الفرصة سانحة ليزأط قليلا ويحتج بدوره على الطعام ، فراح يضرب اناءه بالملعقة مطالبا بقطعة لحم ، ولكن « كريستين » نهرته بحدة قائلة :

ـ كفى ضجيجا يا «جاك» ودع أباك يتناول عشاءه فى هدوء ..

وانزوى الصبى فى خوف ، ونهض عن المائدة . وقبع فى ركن من المرسم ، وراح كعادته يهمس الى دميته بآماله واحلامه ..

وفى الوقت نفسه ، كان « كلود » يلتهم كميات كبيرة من البطاطس وحساء الخضر ويحدث « كريستين » عن مشروع لوحته الجديدة « قلب باريس » ويسهب فى وصف جمالها ، وفيما ستتركه من أثر عميق فى الاوساط الفنية !

واختتم حديثه قائلا :

ـ هل فهمت ما أعنى ؟..

ـ نعم .. نعم .. انها ستكون لوحة رائعة ..

وعاد يسرف فى الحديث عن التفاصيل الدقيقة التى سيضمنها اللوحة ، وعن الزورق الذى سيجعله يتهادى على صفحة النهر وقد جلست فيه امرأة عارية ، ووقفت على حافته امرأة أخرى عارية ، كأنما تهم بالقاء نفسها للسباحة فى النهر بعد ان صعدت زميلتها ..

ولكن « كريستين » فى تلك اللحظات كانت مشغولة بأفكارها ، وبما علمته من انباء فى ذلك الصباح وهى عائدة بعد بيع الثوب الاسود الفاخر ..

وفجأة قالت له :

ـ ان مدام « فانزيد » ماتت ..

وهدأ « كلود » وقال فى دهشة :

ـ ماتت ؟ كيف عرفت؟!.

ـ قابلت احد الخدم فى قصرها هذا الصباح مصادفة ، وكان كعهدى به مهذبا سليم الجسم منتصب القامة رغم تجاوزه الستين من العمر . وقد عرفنى وأخبرنى أنها ماتت منذ شهرين ، وانها تركت ملايينها للجمعيات الخيرية بعد ان أوصت لكل خادم من خدمها ببضعة

آلاف من الفرنكات

فنظر « كلود » اليها فى اشفاق وقال :

ــ يالك من مسكينة يا « كريستين » ؟ كان من الممكن أن ترثى عنها ثروة طائلة ، وكان من الممكن أن تختارى لك زوجا مناسبا ، ولكنك بدلا من هذا كله تعيشين جائعة مع زوج متقلب المزاج غريب الاطوار مثلى !

وأعادتها هذه العبارات الى الواقع ، فاقتربت بمقعدها منه ، وطوقت عنقه بذراعيها واستغرقت معه فى قبلات ملتهبة وكأنهما عاشقان جديدان ٠ ثم هتفت وهى تلتصق به وتتمنى لو ذابت كل ذرة فى جسمها بذرات جسمه :

ــ لا .. لا .. لا تقل هذا .. اننى لم أفكر فى ثروتها يوما .. ولو كنت فكرت لصارحتك بذلك ، فأنت تعرف أنى لا اكذب عليك. ولكننى فقط شعرت بالندم وتأنيب الضمير لأنى تركتها وهى أحوج ما تكون الى .. ولشد ما كانت تحبنى وتدللنى وتسمينى فتاتها الصغيرة ؟ .. لا شك انى سأدفع الثمن غاليا يوما ما .. نعم .. اننى أشعر أن نهاية حياتى السعيدة قد اقتربت ..

وراحت تبكى بدموع غزيرة لانها كانت تؤمن تماما بأن المستقبل لم يعد يدخر لها الا الظلام والاسى .. !

وضمها « كلود » فى حنان الى صدره وقال :

ــ كفى بكاء يا حبيبتى .. تأكدى اننا سنمر من هذه الازمة بسلام ، لا تنسى أنك انت التى هديتنى الى ذلك المنظر الرائع «قلب باريس » ومن هذا تدركين انك من أسباب السعد والحظ الحسن..

وضحك .. وأومأت برأسها ، ولكنها كانت فى اعماق نفسها تدرك ان هذه اللوحة « قلب باريس » قد بدأت تدخل حياتهما وتبعده عنها شيئا فشيئا الى عالم غريب عنها .. الى عالم لا امل لها فى ان تعيش فيه .. ولكنها اخفت مشاعرها ، وتركته يواسيها ويخفف عنها بقبلاته وحنانه ، كما كان يفعل فى السنوات الاولى من الزواج .. واخيرا نهضا عن المائدة وأويا الى الفراش ..

ومرت الاسابيع متوالية ، و «كلود » يخرج فى كل يوم صباحا ، ويمضى الى القنطرة حيث يظل يرنو الى منظر الميناء ٠٠ الى لوحة

« قلب باريس » ثم يقوم برسوم تخطيطية سريعة وكأنه محموم ..
وتحولت الاسابيع الى شهور وهو لا يكف عن هذه الدراسات التمهيدية وعن دراسة المنظر من جميع الزوايا ، وفى مختلف أوقات النهـــار ليرى تأثير الاضواء عليه فى الصباح وفى الظهر ، وفيما بعدالظهيرة.. فى السماء الصحوة ، وتحت الغمام ..

ولمـا نضجت الفكرة فى ذهنه تماما .. رأى ان مرسمه لن يتسع اللوحة ارتفاعها خمسة امتار ، وعرضها عشرة امتار ، ومن ثم راح يبحث فى أنحاء باريس عن مكان آخر .. عن مخزن خال واســع الارجاء يتخذه مرسما .. وفى خلال هذه الفترة كان يعود الى الرسم الصغير مساء ويقضى معظم ساعات الليل فى رسم أجزاء صغيرة من المنظر رسما تخطيطيا لكى ينتهى الى الاوضاع التى يستقر عليهـا عندما يبدأ فى رسم اللوحة الهائلة ..

وفى ذات ليلة ــ وكان شهر ديسمبر ببرده وامطاره وثلوجه قد خيم على باريس ، قالت له « كريستين » فى صوت متهدج :

ــ هل تعرف كم معنا من النقود الليلة ؟

فهز كتفيه ولم يجب ، فأردفت قائلة :

ــ ثلاثة فرنكات .. ولن نجد غيرها حتى نحصل على جزءمن ايراد راس المـال بعد اسبوعين ..

فعاد يهز كتفيه ويقول :

ــ هذا لا يهم .. لسوف نغدو من كبــار الاغنياء فى يوم قريب جدا .. بل اقرب مما تتصورين .. فلا داعى للقلق ..

وخيم عليهما الصمت مرة أخرى .. وبقيت « كريستين» جالسة تداعب الفرنكات الثلاثة بين اصابعها ، واعلنت الساعة منتصـــف الليل .. وارتعد جسمها من فرط البرد .. والانتظار ..

وقالت فى تردد وحياء :

ــ ألا تنام ؟ اننى لم أعد أقوى على السهر أكثر من هذا ..

وبلغ من استغراق « كلود » فى عمله نه لم يسمعها ، ومن ثم عادت تقول :

ــ انظر .. لقد أوشكت النار فى المدفأة ان تخمد .. واخشى ان تصاب ببرد قاتل .. هلم الى الفراش ..

وتركت نبرات التوسل أثرها فى نفسه ، فالتفت وقال بلهجة تنم عن الضيق والتوتر العصبى :

ـ أوه .. اذهبى الى الفراش اذا شئت .. الا ترين انى لم أفرغ بعد من عملى .

وتلكأت لحظة أو لحظتين وقد فوجئت بثورة غضبة ، وطفرت الدموع الى عينيها ، حتى اذا أدركت آنه غير راغب فيها، وأن جلوسها بلا عمل بجانبه يثير استياءه ، نهضت الى فراشها ، ورقدت فيه مفتحة العينين ..

ومرت ساعة .. ثم ساعة ونصف ، واخيرا تجرأت وقالت بصوت متردد خافت :

ـ يا حبيبى « كلود » .. اننى فى انتظارك .. اننى فى انتظارك يا حبيبى .. تعال الى . ارجوك

وترك صوتها الخافت اثره العميق فى نفسه ، فوضع أدوات الرسم جانبا ، ثم نهض وتمطأ بقوة ، وخلع عنه ملابسه كالمعتاد فى كل ليلة ، ثم اندس بجوارها فى الفراش وقال وهو يضمها بين ذراعيه :

ـ الا زلت يقظى يا حبيبتى ؟

ـ نعم .. أنت تعرف اننى لا استطيع الاستغراق فى النوم الا بين ذراعيك

ـ يا حبيبتى الصغيرة ..

وضاعت كلماتها بعد ذلك فى شفتيه ..

وقال وهو يستلقى على ظهره فى ارتخاء :

ـ اننا سنغدو أغنياء يوما .. وليس أقسى من الفقر على الفنان ، أتعرفين ماذا حدث ل « ماهوديو » اليوم ..

فقالت بصوت يغلب عليه النوم :

ـ ماذا حدث ؟! ..

ـ لم يجد المال الكافى ليصنع تركيبة قوية لتمثاله « امرأة تستحم » ومن ثم انهارت التركيبة الضعيفة بعد أن فرغ من صنع التمثال وتحطم .. وتحطمت معه آماله ومجهود عامين كاملين ..

وبعد فترة صمت وجيزة قال كأنما يحدث نفسه :

ـ ولو انك رأيت «ماهوديو» وهو يحاول انقاذ التمثال الضخم لتمزق قلبك حزنا عليه ..

وغمغمت « كريستين » وقد تنبهت من نعاسها :

ـ ماذا فعل المسكين .. ؟!

ـ لقد صاح فى فزع حين رأى التركيبة تتهاوى تحت التمثال ، واندفع اليه ليحميه من السقوط ، وحاولت أن أمنعه ، ولكنه كان اسرع ، اذ فتح ذراعيه واحتضن التمثال .. وكأنه يحتضن حبيبة غالية ويحاول ان يطرد عنها شبح الموت .. ولكنه تعثر تحت ثقل التمثال وسقط معه متدحرجا على الارض .. ولولا أنى جذبته بسرعة لسقط التمثال فوقه وقضى عليه ..

ولما استدار « كلود » ليضم « كريستين » اليه مرة اخرى ، ويقبلها ، احس بقطرات الدموع تنحدر على وجنتيها .. !



الفصل التاسع

على فراش الموت

عثر « كلود » على مخزن خال واسع الارجاء فى شارع صغير ينحدر من مدافن المدينة على قمة تل صغير الى حى شعبى وراء المبانى الجديدة . وكان طول المخزن يزيد عن ثلاثين مترا وعرضه اكثر من خمسة عشر مترا وارتفاعه نحو عشرة امتار . .

ولما كان الصيف على الابواب ، فقد رأى ان فى مقدوره أن يفرغ من رسم اللوحة الهائلة قبيل انتهاء فصل الخريف ، ثم يرحل عن المخزن الى مسكن دافىء . .

وكان فى ذلك الوقت قد تجاوز الثلاثين من عمره . . أى أصبح فى مقدوره — بنص الوصية — ان يسحب ما يشاء من رأس المال ، أى من مبلغ العشرين ألف فرنك الذى كان يدر عليه ربحا سنويا مقداره ألف فرنك ، وكان يرى ان من اليسير عليه أن يتفرغ لرسم هذا العمل الفنى الخالد وهو يعيش على الكفاف . .

وماذا يضير لو انه عاش مع « كريستين » حياة كريمة لائقة لمدة ثلاثة او أربعة أعوام ، وبعدها يكون قد حقق أهدافه ، وصار فى مقدوره ان يبيع اللوحة الواحدة بريشته بأكثر من ثلاثين أو أربعين ألف فرنك كما يفعل « فاجيرول » !

ولكنه رغم هذا اخذ يسحب — بتحفظ شديد — ما يحتاج اليه من رأس المال . . ومن ثم اخذ يؤثث المرسم الجديد بأثاثات مستعملة مشتراة من المزادات ، وكان قد قرر أن يتخذ منه مسكنا له ولزوجته وابنه ، حتى يوفر ايجار المرسم القديم . .

والشىء الوحيد الذى بسط فيه يده بالمال هو الاطار الضخم

الذى صنعه ، بمعونة زوجته « كريستين » ــ للوحة .. لقد استعان بدعائم خشبية متينة تتراوح أطوالها بين ستة امتار وستة عشر مترا ، وصنع لنفسه سلما خشبيا ليقف عليه أثناء الرسم ، واستعان بصديقيه « ساندوز » و «جورى » فى شراء القماش الكتانى السميك وفى تثبيته على الاطار الهائل ..

وبعد أن تم اعداد كل شىء ، عاد « كلود » الى قضاء أيام أخرى فى تأمل منظر « قلب المدينة » فى مختلف الاضواء والظلال ، وهو واقف على القنطرة .. وكان يقف هناك الساعات الطوال وكأنه مثبت فى مكانه ولا يكف عن رسوماته التخطيطية لمختلف اجزاء المنظر الطبيعى

وأخيرا .. وبعد أسبوعين من هذا الجهد المتواصل ، بدأ يرسم الخطوط الاولية فى اللوحة الضخمة .. وقد امضى فى تحديد معالمها فقط ثمانية أيام ..

ثم بدأ العمل .. فى اللوحة الخالدة ! !

بدأت المعركة الرهيبة الاولى بين « كلود » ولوحته الضخمة .. واستمرت هذه المعركة طيلة فصل الصيف . وكان فى بادىء الامر مصرا على مزج الالوان بنفسه دون الالتجاء الى آراء الخبراء الكيميائيين ، ورغم الاخطاء التى ارتكبها فى هذا الشأن ، فقد استمر فى كفاحه ليملأ اللوحة بالصور المعبرة التى تبرز معالم « قلب المدينة » فى ظلال واضواء مذهلة ، تاركا القارب والمرأتين العاريتين لآخر لحظة ..

وظل طيلة فصل الصيف وهو يعيش أيامه على السلم ، باذلا كل ذرة من قواه العضلية والذهنية فى عمله ، حتى اذا أقبل الليل ، ألقى بنفسه على الفراش دون ان يشعر هل أكل أم شرب، ثم استغرق فى نوم عميق ليصحو منه فى صباح اليوم التالى ويقفز الى السلم ، ويستأنف العمل

وكانت نتيجة هذا المجهود البطولى ، رسما تخطيطيا كاملا للوحة كلها ، رسما تخطيطيا يكشف عن العبقرية المتوهجة فى خضم من الالوان والاضواء والظلال .. ولما جاء استاذه « بوجراند» ليراها، طفرت الدموع من عينيه ، وعانقه واغرقه بفيض من القبلات دون أن

يقول شيئا ٠٠ وأقام « ساندوز » مأدبة عشاء تكريما ل « كلود » على هذه البداية الرائعة .. اما «ماهوديو» و «جورى» و «جانيير» فقد جعلوا من انفسهم أبواقا تبشر الوسط الفنى بمقدم فجر جديد .. !

وأما « فاجيرول » ، فقد وقف لحظات طوالا يتأمل اللوحة ، أو – على الاصح – الرسم التخطيطى لها ، ثم انفجر يعرب عن تهانيه القلبية قائلا :

– انها أروع ما رأيت فى حياتى .. !

وكانت نبرات « فاجيرول » تنم عن احساس عميق بالحسد . ويبدو ان هذا الحسد كان فألا سيئا على « كلود » واللوحة ، لان حماسته شرعت ، منذ ذلك اليوم تفتر تدريجيا ٠٠

وهكذا عاد الحال كما كان من قبل .. كان « كلود » يواصل العمل شهورا بأكملها فى حماس شديد لا يفتر ولا يهدأ ، باذلا كل ذرة فى قواه ، متوهجا بكل ما لديه من عبقرية كامنة .. ثم اذا هو يتخاذل فجأة ٠٠ ويحس أنه لم يحقق ما كان يرجوه ، فيكره عمله ، ولا يطيق مجرد النظر اليه ، ثم يهرب منه هائما فى الطرقات معظم ساعات النهار ، مترددا على المقاهى والحانات معظم ساعات الليل ، غير حافل بزوجة او بابن ، وكأنه يعيش فى عالم من الضباب الذى لا يرى فيه طريقا الى الخلاص ..

وينقشع الضباب أخيرا .. ويعود « كلود » الى لوحته ، ويظل يعمل فيها بحماس غير منقطع سنتين كاملتين .. حتى اذا اقترب موعد افتتاح « الصالون الفنى » فى السنة الثالثة ، اذا بحماسته تفتر ، واذا هو يستعين بأربعة من العمال فى قلب اللوحة بوجهها الى الجدار ، واذا هو يتمنى لو سكب عليها بترولا وأشعل فيها ، وفى المرسم النار ، ولكنه كان فى خلال هذه الثورة من اليأس اضعف من ان يحقق أمنيته ..

وتمر الاسابيع وهو على هذه الحالة من اليأس ، ثم يبدأ فى التخلص منها تدريجيا ٠٠ ويعيد التفكير فى الامر ، ان رأس المال – أى العشرين ألف فرنك ، تذوب عاما بعد عام .. فلماذا يصر على ان يتقدم بهذه اللوحة الرهيبة الى الصالون الفنى ؟.. لماذا لا يرسم « لقلبه

باريس » لوحة اصغر .. ومن الطبيعة نفسها .. ؟

وأعجبته هذه الفكرة ، فراح يقف على القنطرة امام لوحة الرسم الاصغر ويعمل من الصباح الى المساء . واستطاع أن يفرغ منها قبل الموعد المحدد لافتتاح « الصالون الفنى » فى العام الخامس منذ بدئه العمل فى اللوحة الكبيرة .. ولكن مصير اللوحة الصغيرة كان كمصير سابقاتها .. الرفض ! !

وكان التقرير اللاذع عنها أنها « عمل رجل سكير يرسم بمكنسة » !

ولكن « كلود » لم ييأس .. وانما ازداد رغبة فى صفع كل عضو فى لجان التحكيم يوم يقيم الوسط الفنى ويقعده بهذا العمل الخالد .. ومن ثم عاد الى لوحته الضخمة يعمل فيها ليلا ونهارا لمدة عام .. وكان خلال هذا العام قد اقام بينه وبين العالم الخارجى حجابا منيعا .. وأصبح « قلب باريس » هو الفكرة التى يعيش عليها، ويقتات منها ، ولا يرى شيئا فى الحياة غيرها .. !

ورغم نوبات اليأس التى كانت تراوده بين الحين والآخر ، الا انه لم يفقد الايمان يوما فى عبقريته . .

وفى ذات يوم ، بعد ان أغلق مرسمه فى وجوه اصدقائه عاما كاملا .. فتحه لهم ،وكان « ساندوز » أول من أقبل عليه .. ووقف « ساندوز » يتأمل اللوحة فى ذهول ودهشة .. لقد رأى أنها لا تزال رسما تخطيطيا .. ولكنه فوجىء بشىء جديد فى وسطها لقد ملأ « كلود » الجزء الاكبر من الوسط ــ أو البؤرة ــ بقارب ضخم عليه ثلاث نساء .. واحدة فى ملابس السباحة تعمل بالمجدافين ، والثانية جالسة على الحافة مدلاة القدمين الى الماء وثوب السباحة ينحسر عن كتفيها .. والثالثة واقفة فى مقدمة الزورق ، عارية تماما .. وكان جسمها يتألق وكأنه قطعة باهرة من الشمس ..

وفى النهاية قال « ساندوز » بهدوء :

ــ ما هى الفكرة من وجود هؤلاء النسوة .. ماذا يفعلن !؟

وبنفس الهدوء أجاب « كلود » :

ــ يستحممن طبعا .. لقد خرجن كما هو واضح من النهر بعد السباحة وهى فكرة أصيلة .. هل صدمتك ؟!!

وكان « ساندوز » يعرف ضعف « كلود » أمام النقد .. ومن ثم قال متجنبا اثارته :

ــ صدمتنى ؟ لا طبعا ! كل ما افكر فيه هو أن يتسنى للرأى العام فهم هذه اللوحة . أن الناس لم يتعودوا هـــذا ، أليس كذلك ؟ لم يتعودوا أن يروا أمرأة عارية فى قلب باريس .. !!

فقال « كلود » مصطنعا الدهشة :

ــ أترى هذا حقا ؟! اننى شخصيا أعتقد أن هـــذا لا يهم طالمـــا أنى رسمتها ببراعة معجزة .. لقد بذلت كل جهدى لأجعلها شـــيئا يخطف الانفاس بما فيه من نبض الفن !

ولكن « ساندوز » لم ييأس .. وانما أخذ بعد بضعة ايام يحـــاول اقناع صديقه بشذوذ الفكرة ، قائلا أنه لم يستطع أن يبهر النـــاس برسم أمرأة عارية ولكن فى الوضع المناسب .. فى غرفة النـــوم أو فى الحمام .. أما فى قلب باريس ــ وفى وضح النهار ــ فهذا ما لا يمكن أن يستسيغه أحد !

على أن «كلود» أبى أن يقتنع ، وراح يسوق حججـــا غير مقنعة ، يحاول بها أن يبرر اختياره للفكرة .. ولكنه لم يقدم الحجة الوحيـــدة التى كان يراها فى اعماق نفسه .. أنه كان يعتقد ان المرأة الواقفة فى شموخ ، متجردة من ملابسها، بادية بكل روعتها الطبيعية ، ليست رمزا للمرأة العارية ، وانما هى رمز لمدينة باريس بكل ما فيها من جمـــال وضياء وبهاء ..

ولما اشتد الحاح صديقه عليه ، قال فى النهاية ؟

ــ حسنا .. حسنا .. لسوف أضع عليها بعض الثياب فى المرحلة الاخيرة اذا لزم الامر .. أما الان ، فسوف أدعها كما هى ، لانى أحبها فى هذا الوضع الباهر .

وفى خلال هذه السنوات العصيبة ، كانت « كريستين » تعيش على هامش حياة « كلود » .. الا أنها كانت على استعداد لان تضحى بأى شىء لكى تنتزعه من جنون الفن وتعيده الى عالمها . وكان هـــذا هو السبب الذى دفعها لان تجعل من نفسها جارية له ، تستمد السعادة من قيامها على خدمته ، ومن مساعدتها له فى عمـــل يحتاج الى مجهود بدنى . واستطاعت فى النهاية ان تنتزع من قلبها الحقد على اللوحة ، وأن تنظر اليها على أنها الامل الذى ســـيضىء مستقبل « كـــلود »

ومستقبلها معه ..

ولم تتردد لحظة واحدة فى أن تحقق رجاءه عندما طلب منها أن تقف عارية أمامه الساعات الطوال لكى يعيد رسم المرأة العارية فى اللوحة بالاسلوب الذى يرضيه .. ورغم ما كانت تشعر به من أرهاق شديد اثناء مثولها فى الوضع المطلوب ، الساعة بعد الاخرى ، فانها لم تحاول يوما أن تشكو أو تتذمر .. ذلك انها كانت تخشى أن يلجأ «كلود» فى النهاية الى الاستعانة باحدى الغانيات المحترفات ليتخذ منها نموذجا للرسم ..

وقد أدى هذا كله بطبيعة الحال الى مزيد من أهمال ابنها « جاك » فكان الصبى يعود من المدرسة مرهقا ليجد نفسه مرغما على البقاء داخل الغرفة الصغيرة التى اقامها « كلود » فى ركن من المخزن الكبير ، وكان «جاك» قد نما ضعيف العقل ، كبير الرأس بالنسبة لجسمه الهزيل ، عاجزا تماما عن مجاراة زملائه فى المدرسة .. ومن ثم كان يعود كل يوم مرهقا ، فينام ، أو يجلس فى ركن الغرفة حائرا ، مدهوشا ، ضائعا بين أب فنان ، وأم عاشقة ! ..

ولكن أشد ما كان يحز فى نفس « كريستين » ان « كلود » لم يعد ينظر اليها كأنسانة حية .. وانما كنموذج فقط لا مرأة يريد ان يصنعها بيديه . فكانت كل عواطفه مركزة فى هذه المرأة العارية التى ظل يمسحها من اللوحة ويعيد رسمها المرة بعد الاخرى لكى يبلغ فى رسمها الذروة التى ليس بعدها ذروة فى فن الرسم

ومرت الاشهر الطوال و « كريستين » تتعذب كل يوم بالوقوف عارية الساعة بعد الاخرى أمام زوجها الذى لم يكن يشعر بوجودها الا كنموذج لرسمه .. وكانت تعرف فى أعماق نفسها أنها هزمت تماما امام غريمتها العارية فى اللوحة .. ولكنها تحمل فى قلبها حقدا على « كلود » .. وانما ظلت على حبها العظيم له ، متفانية فى ارضائه، متغنية بعبقريته وبالثناء على العمل الرائع الذى يقوم به ..

ورغم هذا كله ، كانت تستبد به تلك النوبات من اليأس التى تدفعه الى الهرب من اللوحة أياما ، أو أسابيع ، أو شهورا متتالية . وفى أحدى هذه النوبات ــ بعد عامين من استئناف العمل ــ كان « كلود » يهيم على وجهه فى طرقات باريس ، مشعث اللحية ، رث الثياب ، زائغ

النظرات ، غير حافل برذاذ المطر الذى كان يتساقط .. وفيما هو يعبر شارع رويال فى صمت الرجل الذى يسير وهو نائم حتى كاد أن يسقط اكثر من مرة تحت عجلات المركبات ، اذا بمركبة تقف بجواره ، واذ هو يسمع صوتا نسائيا يقول له :

ــ عجبا يا « كلود » .. ألا تعرف أصدقاءك فى هذه الايام ؟

وكانت « ايرما بيكو » . فى أبهى ملابسها ، تطل من نافذة المركبة وتبتسم له قائلة :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟

وأجابها فى ذهول انه لا يعرف أين يذهب .. فضحكت وعادت تقول وقد ارتسمت فى عينيها نظرة ماكرة :

ــ لماذا لا تركب معى ؟ ..

ثم اردفت قائلة وهى غير حافلة بتعطيلها الطريق أمام المركبات الاخرى :

ــ اننى لم أرك منذ سنوات .. تعال ، اركب معى .. اننى أريد أن أستضيفك فى قصرى الجديد .

وكانت « ايرما » قد حققت آخر مرحلة من أهدافها .. فشيدت ــ أو شيد لها أحد عشاقها الاثرياء ــ قصرا صغيرا .. وأثثه لها ــ عشيق اخر ــ بأفخر مايتصوره العقل البشرى من أثاثات ومفروشات حتى أصبح حلم كل سائح ثرى أن يقضى فيه ليلة واحدة .. بأى ثمن .. !!

ودخل « كلود » معها القصر دون ان يشعر أو يتأثر بروعة ما فيه ، لقد كان يسير كانسان يعيش فى عالم خاص به .. وأمرت « ايرما » جميع الخدم بأن يخبروا أى زائر بأنها غير موجودة ، وأحنى الخدم رءوسهم وهم يخفون دهشتهم من رؤية هذا المتسول الذى يسير شامخ الرأس بجانب ملكتهم غير المتوجة ..

وجلست « أيرما » بجانب « كلود » فى قاعة المائدة الفاخرة تطعمه بيديها أطايب الطعام ، وتسقيه من كأسها أجود وأعتق أنواع الشراب ، وتترك أنفاسها العطرة تمسح على وجهه الملتحى ، حتى اذا أعلنت الساعة الثامنة مساء ، مضت به الى مخدعها الحريرى ذى الجدران المبطنة بالمخمل .. وقالت له وهى تغلق الباب من الداخل بالرتاج :

ـ لسوف تقضى هذه الليلة معى شئت أم لم تشأ .. لقد تحدثنا عن هذه الليلة بما يكفى ولم يعد ثمة مجال لارجائها .

وفى هدوء تام أخذ « كلود » يخلع ملابسه الرثة .. أن من الخير له ، هكذا فكر ـ فى أن ينام فى هذا المخدع الفاخر ، بدلا من ان يقضى الليل هائما فى شوارع باريس .. ذلك أنه كان قد أقسم لنفسه الا يعود الى المرسم ، وألا تقع نظراته ـ مدى الحياة ـ على هذه اللوحة النافرة العنيدة .. !

لقد بلغ من شعوره بالمهانة وانهيار حياته أنه راح ينظر الى هذه المغامرة مع « ايرما » فى غير دهشة أو عجب .. أما هى فقد قررت أن تعيش ليلة تسترد فيها ذكريات أيام الصعلكة فى حانات باريس ، وأن تستمتع مع الرجل الوحيد الذى عجزت حتى هذه اللحظة عن ترويضه ..

ومرت الساعات .. حمراء .. دامية .

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، تراخت فى فراشها ، وراحت تتمتم بصوت خافت :

ـ الان .. استطيع أن أقول أنى انتصرت تماما .. ولكن .. أين تلك المرأة التى تقول أنها زوجتك ؟

فقال « كلود » وهو يغالب الارهاق والرغبة فى النوم :

ـ انها لاتزال معى ..

ـ ولا تزال تعاشرها كزوج ؟ ..

ـ طبعا ..

فضحكت « أيرما » وقالت ساخرة :

ـ يالك من مسكين يا « كلود » .. يالك من مسكين .. لا شك أن الملل يكاد يقتلك !

وفى صباح اليوم التالى أطلقت سراحه .. ولكنها قالت له وهى تودعه ضاحكة :

ـ أننى لا أدرى كيف اشكرك .. لقد بذلت كل جهد لارضائى على حساب متعتك .. انك لم تستمتع بهذه الساعات التى أمضيتها معى ، لا تكذب .. أن المرأة تعرف هذا بغريزتها .. ولكننى استمتعت بكل لحظة فيها . ولهذا اشكرك من أعماق قلبى وداعا ..

وكانت تلك نهاية «كلود» فى نظر «أيرما» .. لقد نالته وانتهى أمره ، فاذا أراد يوما ان يعيش معها ليلة كهذه ، فعليه ان يدفع الثمن .. وما ابهظه ؟

على أن هذه المغامرة كانت كالصدمة التى جعلت « كلود » يفيق الى نفسه ويشعر بمزيج من الكبرياء والندم .. وأهم من هذا كله أنها دفعته للعودة الى مرسمه .. الى « كريستين » وهناك أعترف لها بكل شىء .. وثارت عليه بطبيعة الحال ثورة عارمة .. وأفرطت فى نوبة من البكاء الشديد ، ولكنها غفرت له فى النهاية ، وقد شعرت بالفخر لان امرأة مثل « ايرما » اشتهت زوجها رغم جميع ماعرفتهم من رجال ..

وفى منتصف شتاء ذلك العام ، عاد الى « كلود » حماسه للرسم ، وفيما هو ينظف المرسم ويعده لجولة أخرى ، عثر على قطعة من اللوحة الاولى التى قدمها الى الصالون الفنى وعرضت فى قاعة المرفوضات .. لوحة « مع الطبيعة » وكان قد انتزع منها رسم المرأة العارية الجالسة أمام الرجل المرتدى ملابسه . وازال عن هذه القطعة من اللوحة الغبار ، ثم علقها على الجدار ، وراح يتأملها مبهور الانفاس .. لقد أبى أن يصدق أنه هو الذى رسم بيديه هذه المرأة العارية بكل هذا الرواء والنبوغ .. لقد رأى بنظرة الفنان الملهم أنه أمام عمل رائع .. عمل معجز .. وأن « بوجراند » حين قال انه يتمنى لو فقد عشرة اعوام من عمره ليرسم امرأة كهذه ، لم يكن مبالغا ...

وصاح من أعماق قلبه :

ـ بحق السماء .. مادمت قد استطعت يوما أن ارسم شيئا معجزا كهذا ، فان فى مقدورى أن أرسم مثله ، وأعظم منه ..

وعادت « كريستين » الى الوقوف عارية أمامه الساعات الطوال كل يوم.. وعاد هو الى السلم يقف عليه ويعمل فى لوحته الساعات الطوال كل يوم . ومر شهر وهى تقف فى كل يوم ثمانى ساعات حتى تتخدر قدماها به وحتى تكاد تسقط من فرط الارهاق والشعور بالبرد .. ولكنه لم يكن يرحمها ، أو لعله لم يكن يحس بما تعانيه .. كما لم يكن يحس بما يعانيه هو من ارهاق شديد

لوقوفه على السلم ثمانى ساعات كل يوم .

كان مصرا على أن يقدم للفن قربانا .. كان مصرا على أن يجعل من المرأة العارية الواقفة فى مقدمة الزورق اسطورة فنية خالدة يكشف بروعتها لوحة الجيوكاندا ..

ولكنه كان يستشاط غضبا حين يجد نفسه مع هذا الجهد كله عاجزا عن تحقيق هدفه .. كان ينظر الى جسد زوجته ويرسمه ، ويظل على هذا الحال ساعات وأياما .. ثم اذا هو ذات يوم ينفجر قائلا فى ثورة عارمة :

— لم يعد شك فى هذه الحقيقة .. انك لست كما كنت منذ اكثر من عشر سنوات . أى منذ رسمتك فى لوحة « مع الطبيعة » . ليس هناك أى وجة للمقارنة .. كان جسمك يومذاك عذريا ، نابضا بالصبا .. ولن أنسى دهشتى حين رأيت لاول مرة نهديك النافرين وأنت نائمة .. ولكن .. ماذنبك ؟ وما حيلتك مع الزمن الذى يغير كل شىء .. ولا سيما جسد المرأة !

ولم يكن يتعمد جرح مشاعرها .. ولكن كلماته نفذت الى أعماق نفسها كالخناجر المسنونة . ولكنها تمالكت مشاعرها ، وابتلعت دموعها ، وحاولت أن تتماسك وهى واقفة ، وأبت عليها كبرياؤها أن تغار من صورة شبابها . لقد أدركت فى النهاية أن هناك شيئا واحدا فى حياتهما .. وأن هذا الشىء هو التعاون على اتمام هذه اللوحة مهما يكن الثمن ، لان الفشل معناه الضياعة ، والتسول ، والتشرد ...

ورغم هذا كله ، فقد عاد ذات يوم يقول غاضبا بعد محاولة أخرى فاشلة :

— من الواضح اننى لن أنجح فى رسم هذه المرأة وانت النموذج .. ان نموذج الفنان لايجب أن تحمل وتضع .. ان الحمل والوضع قد هدل اجزاء كثيرة من جسدك ..

ولم تستطع « كريستين » أن تحتمل اكثر من هذا ، فأسرعت ترتدى ملابسها ودموعها تنحدر بغزارة على وجهها .. وهبط « كلود » من فوق السلم ، وهرع اليها نادما ، وأخذها بين ذراعيه وهو يقول بصوت كله الندم والحنان :

ـ اننى آسف يا عزيزتى .. ما كان ينبغى أن اقول هـذا ؟ اننى وغد .. وغد بكل معنى الكلمة .. هل تصفحين عنى؟ اذن عودى الى مكانك لمدة نصف ساعة أخرى لكى اتأكد انك صفحت عنى حقا.

ثم حملها ، عارية كما هى ، وأعادها الى مــــكانها . ووقفت وهى تغفر له كل اساءاته .. الا أنها كانت تشعر فى أعماق نفســـها بموجات بعد موجات من الاسى المرير الذى جعل الدموع تنثال فى صمت على وجهها ثم تنحدر على نهديها .. آه .. نعم .. هـــكذا فكرت ، لعله كان من الافضل ألا يولد ذلك الطفل .. لاشـــك أن مولده هو السبب فى كل هذه الكوارث التى حطت عليهما ..

وفى ذات يوم ، بعد أن خرج « كلود » ليتريض قليلا فى جوانب الاكمة ، أقبل صديقه « ساندوز » لزيارته ، ولشد ما أحزنه أن رأى « كريستين » مقرحة العينين من كثرة البكاء ، فقال لها فى تلطف .

ـ اذا كان « كلود » سيعود بعد وقت قصـــير ، فيمكننى أن أنتظره ..

فقالت مؤكدة :

ـ نعم .. نعم .. انه لن يغيب ..

ـ حسنا .. سأبقى اذا لم يكن فى بقائى ما يعطلك عن عملك

وامتلأ قلب « ساندرز » بالعطف على هذه الزوجة الكريمـــة العطوف ، ثم قال لها حين رآها مشغولة بأمر ابنهــــا « جاك » الراقد فى الفراش :

ـ ماذا بك يا « كريستين » ؟ هل « جاك » مريض ! ..

فأومأت برأسها وقالت :

ـ نعم .. منذ ثلاثة أيام .. ولا ندرى ماذا أصابه .. لقد جئنا به من القسم الداخلى بالمدرسة ليكون تحت رعايتى .. ولكننى لا أعرف كيف أمرضه .. انه مرتفع الحـــرارة دائمـــا .. ويكاد يهذى ..

ثم اردفت قائلة فى أسى :

ـ ان صحته لم تكن يوما ما على ما يرام ..

ونهض « ساندوز » والقى نظرة على الغلام الراقد فى جزع شديد : بلا حراك، حتى ليحسبه الراقى ميتا ، ثم عاد وقال فى جزع شديد:

ــ ان حالته خطيرة حقا .. يجب استدعاء أحد الاطبـــاء على الفور فهزت « كريستين » كتفيها وقالت :

ــ لقد استدعينا طبيبا منذ يومين ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ، ان كل ما نأمله ان يكون الأمر مجرد مرحلة جديدة فى النمـو ... انه الان فى الثانية عشرة وان كان يبدو فى الثامنة فقط ..

ورأى « ساندوز » ان يغير مجرى الحديث حتى لا يضاعف مـــن مخاوف « كريستين » فنظر الى اللوحة وقال لها :

ــ آه .. انها تحسنت كثيرا ... وأعتقد أنه قد اهتـدى الى الاسلوب الصحيح هذه المرة ..

ــ لقد فرغ من رسمها ..

ــ فرغ ؟ !

ــ نعم .. وسوف يرسلها الى الصالون الفنى فى الاســبوع القادم ..

ولم يدر « ساندوز » ماذا يقول .. ومن ثم جلس على الاريكة ، وراح يتأمل اللوحة التى كانت أجزاء كثيرة منها لا تزال فى مرحلة الرسم التخطيطى .. أما الزورق فى الوسط ، والمـرأة العارية ، فكانت رائعة حقا رغم شذوذ وضعها ...

وقالت « كريستين » :

ــ مارأيك .. أليست معجزة ؟ !

ونجا « ساندوز » من الرد حين دخل « كلود » تلك اللحظـــة مبتهجا برؤية صديقه ، فصافحه ، وقبل « كريستين » ، وذهب للاطمئنان على « جاك » .. ولما عاد قال له « ساندرز » بقلق :

ــ كيف حاله الآن ؟

ــ بخير .. انها مرحلة نمو طبيعى ... لا تقلق ..

ونظر « ساندوز » الى اللوحة وقال :

ــ علمت من « كريستين » أنك فرغت منها ..

ــ نعم .. وسوف أرسلها الى قصر الفن فى الاسبوع المقبل ..

ــ أحسنت .. لقد آن لها أن ترسل بعد كل هذه السنوات .. ان فيها كل سمات العبقرية .. لا سيما ذلك الركن من الميناء وذلك الرجل الذى يحمل غرارة .. ولكـــن ... لماذا تصر على ان

تبقى هذه المرأة عارية فى قلب باريس وفى وضح النهار !

فهز « كلود » كتفيه ولم يجب ..

ورأى « ساندوز » ان يغير مجرى الحديث ، فراح يذكر لصديقه أخبار بعض أفراد العصابة ، فقال له ان « فاجيرول » سوف ينتخب عن الفنانين الشبان عضوا بلجنة التحكيم فى الصالون الفنى هذا العام ، وان « دوباك » يعيش مع زوجته السقيمة ابنة المليونير « مارجيلان » عيشة كلها التعاسة والبؤس لان نظرياته فى هندسة البناء تتعارض مع نظريات حتمية ، وانتهى الامر بينهما الى انفصال « دوباك » من شركة حميه ، والبحث عن عمل فى شركة أخرى ..

وقال له أيضا ان « ماهوديو » تقدم الى الصالون الفنى بتمثال صغير « امرأة تستحم » وانه أصبح يلتقط رزقه من صنع التماثيل الصغيرة التجارية ، ويبيعها لتجار الاسواق الشعبية ..

أما « جورى » فقد نجح فى عمله الصحفى ، وتولى رئاسة تحرير مجلة فنية ، وتزوج « ماتيلدا » لانها المرأة الوحيدة التى يمكن أن تجعله قادرا على النوم كل ليلة دون الخروج للبحث عن احدى بنات الليل !

وبعد أن ظل الصديقان يتبادلان الاحاديث ساعة أو نحو ساعة ، انصرف « ساندوز » قائلا انه سيعود فى اليوم التالى ومعه طبيب ليفحص « جاك » ..

وعقب انصرافه أخذ « كلود » يتأمل اللوحة فى ضوء الغسق ، وشيئا فشيئا راح وجهه يتجهم .. وأدركت « كريستين » أن احدى نوبات اليأس تصطرع فى نفسه ، فصاحت قائلة فى جزع :

ــ لا .. لا يا « كلود » وانهال بقبضة يده فى نوبة جنون على قلب اللوحة ، وهو يصيح :

ــ بل انها قبيحة .. انها ليست كما أردت أن تكون ..

ومزقت قبضته القماش السميك .. فى وسطها تماما .. وبدت الفجوة السوداء كأنها طعنة فى قلب جسم حى .. وصرخت «كريستين» وهى تقع مغشيا عليها :

ــ يا لضيعة العمر .. !

وركع « كلود » بجانب اللوحة الجريحة يبكى .

وفى الصباح هدأت نفسه قليلا ، فراح - مع « كريستين » - يلأم الجزء الممزق من الخلف بالملصقات ، حتى عادت كما كانت الا من خطوط بسيطة كأنها آثار جراح التأمت .. وقال فى حزن عميق :

- ان الالوان ستخفى هذه الخطوط .. ولكن اللوحة لم تتم بعد .. لا بد لى من العمل فيها سنة أخرى أو أكثر ..

وتمتمت « كريستين » فى رعب قائلة :

- هل نسيت أنه لم يبق لدينا من رأس المال الا ما يكفى لحياتنا بضعة أسابيع أخرى ..

فهز « كلود » كتفيه وقال :

- ان الناس فى باريس لا يموتون جوعا .. ولكننى لن أتراجع عما عزمت عليه .. لسوف أبدأ من جديد .. وقد ينتهى الامر الى موتى أو الى موتك أو الى موت الناس جميعا .. ولكننى لن أهدأ حتى أجعل منها معجزة فى فن الرسم ..

وأقبل « ساندوز » فى الضحى مع الطبيب الذى فحص الغلام « جاك » ثم انصرف بعد أن وصف له الدواء .. ولكن وجهه كان ينم بوضوح عن يأسه من الشفاء ..

وفى أصيل ذلك اليوم ، تنبهت « كريستين » من نعاسها أثناء جلوسها بجوار فراش ابنها ، وما كادت تنظر اليه حتى صاحت فى فزع وهى تجرى الى « كلود » الجالس أمام اللوحة يتأملها ويدرس الزوايا التى سيبدأ منها الرسم من جديد :

- « كلود » - « كلود » .. ان « جاك » مات ..

واندفع « كلود » متعثرا نحو فراش ابنه ، وهناك وقف بجانب « كريستين » يحملق فى الوجه الساجى بعينين جاحظتين ، ثم يتمتم قائلا :

- هل مات حقا .. ؟ !

وظل شاخص النظر الى الوجه الشاحب العروق ، والى العينين المفتوحتين الغائرتين بنظراتها الجوفاء ، والى الشفتين المزمومتين .. ثم الى الرأس الكبير القائم على عنق ضامر .. والى اليد الهزيلة المعروقة الخارجة عن غطاء السرير .. ثم عاد يتمتم مرة أخرى :

ـ نعم ٠٠ انه ميت ٠ !!

وتحجرت الدموع فى عينيه من فرط الصدمة ٠٠ أما « كريستين » فقد ركعت بجوار الفراش ، وراحت ترسل دماء قلبها دموعا ٠٠ ولكنها كانت تقول بين الحين والاخر كأنها تواسى نفسها :

ـ لقد استراح ولدنا ٠٠ لن يسير معنا فى الشوارع يوما يستجدى طعامه !

وتحرك « كلود » أخيرا ، وراح يذرع المرسم جيئة وذهابا وقد استبدت به نوبة الحماس للرسم ٠٠ كان وجه ابنه الميت قد أوحى اليه بفكرة جديدة ، فكرة رسم لوحة بعنوان « طفل على فراش الموت » ولم يلبث أن اختطف احدى ورقات الرسم وعلبة الالوان الطباشيرية ، وجلس أمام الفراش وراح يرسم كالمجنون !

ورفعت « كريستين » رأسها ، وقالت حين رأته على هذا الوضع :

ـ نعم ٠٠ يمكنك أن ترسمه الان وهو راقد لا يتحرك ٠٠ لقد كنت تشكو من كثرة حركته عندما حاولت رسمه وهو صغير ٠٠

وبدا على « كلود » أنه لم يسمعها ٠٠ فقد ظل مستغرقا فى الرسم ساعة بعد أخرى ، حتى كادت الشمس أن تختفى ٠٠ وعندئذ وضع أدوات الرسم ، وأسرع الى الخارج ليقوم باجراءات دفن الغـــلام الميت ٠٠

وبعد ثلاثة أيام من مواراة ابنه الثرى ، تقدم الى الصالون الفنى فى ذلك العام بلوحة صغيرة عنوانها :

« طفل على فراش الموت »



الفصل العاشر

مـــرارة النصـــر

في اليوم الذى حمل فيه « كلود » لوحته « طفل على فراش الموت » الى قصر الفن ، سار بعد أن فرغ من هذه المهمة فى شوارع باريس على غير هدى ٠٠ واذا به يفاجأ برؤية « فاجيرول » أمامه ، واذا بصديقه القديم يرحب به قائلا :

– آه ٠٠ « كلود » أخيرا ٠٠ أين أنت كل هذه المدة ، لماذا لايراك احد ، وما هو اخر انتاجك الفنى يا عزيزى ؟ !

ولما أخبره « كلود » بأنه حمل فى ذلك الصباح اخر لوحة رسمها الى قصر الفن بعنوان « طفل على فراش الموت » ربت « فاجيرول » على كتفه وقال :

– حسنا ٠٠ حسنا ٠٠ يجب أن أبذل جهدى لتقبل ٠٠ فأنت تعلم أننى عضو منتخب فى لجنة التحكيم هذا العام ٠٠

وكان « كلود » قد عرف هذه الحقيقة من « ساندوز » فى مقابلته الاخيرة ٠ ومن ثم راح يهنىء « فاجيرول » بهذا النجاح المضطرد ، بينما قال « فاجيرول » ببساطة وتواضع :

– تعال معى الى بيتى الصغير الذى شيدته أخيرا ٠٠ لقد وعدتنى كثيرا بالزيارة ، ولكنك لم تفعل ٠٠ انه غير بعيد من هنا ٠٠ انه فى منعطف شارع فالير ٠٠

ولم يستطع « كلود » أن يعتذر خشية أن يغضب هذا الصديق الذى وعد بالسعى لكى تقبل لوحته فى مسابقة الصالون الفنى هذا العام ٠ ولما وصل معه الى البيت الذى كان فى الواقع قصرا صغيرا أنيقا فى شارع فالير الواسع الجديد ، وقف أمامه برهة وهو لا يملك

نفسه من الاعجاب بهندسة البناء ، وزخارف الواجهة ، وتناسق ألوانها مع ألوان النوافذ والابواب والشرفات ·· وكانت الحديقة ، والمدخل ـ بأعمدته الرخامية ـ يمثلان لوحة فنية لا تشبع العين عن النظر اليها ·· !

ودهش « كلود » حين التفت وراءه مصادفة ، فوجد أن القصر الصغير المواجه له ، هو نفس القصر الذى أمضى فيه ليلة حمراء دامية مع الغانية « ايرما بيكو » ··

وقال « فاجيرول » حين أدرك ما يجول بنفسه :

ـ انه قصر « ايرما بيكو » ·· وهو أروع وأكبر من بيتى هذا ·· اننى مجرد فنان يعيش من لوحاته هلم الى الداخل ··

وكان داخل القصر متناسقا فى الجمال والابهة مع خارجه · وكانت جدران الردهة الامامية مكسوة بالسجاد العجمى الفاخر ، وبألوان متناسقة من الاسلحة ورءوس الغزلان والوعول وبعض التحف الشرقية وكانت غرفة المائدة ـ على يسار الداخل ـ مبطنة بألواح من الخشب الفاخر المطلى باللاكيه المذهب ، وكان السقف كله عبارة عن قطعة ضخمة من المخمل الكحلى المرصع بقطع كبيرة من الماس المزيف على هيئة نجوم ·· !

وقال « فاجيرول » وكأنه يجيب على نظرة تساؤل فى عينى «كلود» :

ـ اننى غارق الى عنقى بالديون للتاجر الخبيث « نوديث » ·· انه هو الذى شيد لى هذا القصر ، وهو الذى اشترى لى هذه الاثاثات والمفروشات كلها مقابل أن أبيع له كل انتاجى من اللوحات بسعر لا يزيد على عشرة الاف فرنك للوحة الواحدة ··

وصمت برهة ثم قال كأنما يحدث نفسه :

ـ وهكذا وقعت فى قبضته ولم يعد لى سبيل للخلاص ··

وبعد برهة من الوقت ، رأى « كلود » لوحة صغيرة موضوعة على حامل تمثل أدوات رسم الفنان بعد أن يفرغ من استعمالها ، وبجانبها صندوق من الالوان الطباشيرية ··

وقال « فاجيرول » وهو يبتسم فى ارتباك :

ـ انها لوحة بسيطة أوحى الى « نوديث » بفكرتها ··

وأومأ « كلود » برأسه وقال مجاملا :

– انها جميلة فعلا .. وماذا عن الصالون الفنى ؟ .. هل اشتركت بلوحة فيه هذا العام ؟

– الواقع أنى لم أكن أنوى الاشتراك هذا العام ، ولكن « نوديث » أصر على ذلك .. وقد هدد كثير من الفنانين الشبان بعدم انتخابى اذا لم اشترك فى صالون هذا العام . وهكذا لم يسعنى الا أن أرضيهم حتى أضمن الحصول على أصواتهم .. وقد أرسلت لوحة اسمها « النزهة فى الخلاء » عبارة عن رجلين وثلاثة نساء يتناولون الغداء فى ساحة معشبة بالغابة .. وأعتقد أنها ستعجبك حين تراها ..

وتراخت نبرات صوته حين رأى نظرات « كلود » مركزة عليه ، ومن ثم عاد ينظر الى لوحة « أدوات الفنان » ويقول محاولا اخفاء ارتباكه :

– ان هذه من الاعمال الحمقاء التى ارغمنى عليها نوديث .. أما اللوحة التى اشتركت بها « نزهة فى الخلاء » فانها تتمشى مع نظريتك ومذهبك الجديد فى الرسم واعنى به ، الرسم من الطبيعة .. ولهذا كنت أدافع عنك بحماس بالامس فقط عندما جاء ذكرك فى مجلس من الفنانين ..

وكان يشعر بالازدراء الصامت الذى يطل من عينى استاذه القديم « كلود » ، ولكنه أراد أن يجذبه اليه كما تفعل المرأة المحرومة من الجمال حين تعترف ضاحكة انها ليست جميلة لكى تجذب الناس اليها بصراحتها وبساطتها .. الا أنه كان صادقا ، وفى شىء من اللهفة ، حين أكد أنه سوف يبذل كل ما لديه من جهد لكى تقبل لوحة « كلود » فى مسابقة الصالون الفنى هذا العام ..

وفى تلك اللحظة بدأ الزوار يتوافدون .. وما هى غير فترة وجيزة حتى تجاوز عددهم العشرين زائرا .. اباء يتقدمون أبناءهم الفنانين الناشئين .. مشتركون فى مسابقة الصالون الفنى يوصون على لوحاتهم لكى تقبل .. زملاء من كبار الفنانين يتبادلون مع « فاجيرول » الاراء فيما سيفعلون فى هذه المسابقة ..

واستأذن « كلود » فى الانصراف وهو يضرب – بلا حسد أو حقد – كفا بكف لما بلغه فنان عادى ليست له ذرة من النبوغ ، هذه الذروة من النجاح .. !

ولم يحاول أن يعرف السبب .. لم يحاول أن يعرف هل هـذا النجاح راجع الى قدرة « فاجيرول » على تنظيم وقته ومواصلة الانتاج بغير نوبات من اليأس ، أم الى قدرته على النفاذ الى أعماق الرأى العام ، فراح يقدم اليه ما يرضيه ، وليس ما يرضى عنه هو !

وظل « كلود » يسير فى شوارع باريس كعادته بلا هدف معين ، حتى اذا اسدل الليل استاره ، مضى الى حى مونمارتر حيث ظـل يشرب الكأس تلو الكأس الى أن بدأ عمال الحانة فى اغلاق ابوابها ..

ومع تباشير الفجر ، عاد الى بيته مرهقا ، والقى بنفسـه على الفراش ، وسـمع « كريستين » وهى تتنهد بعمق ، كأنما كانت فى انتظاره مسهدة .. فلما رأته بجانبها ، استراحت ، وبدأت تستغرق فى النوم ..!



وظل « كلود » يعيش على اعصابه خمسة عشر يوما .. وكم من مرة فكر فى ان يسأل « فاجيرول » عما يجرى بين لجان التحكيم ، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية .. وعدا هذا كانت لجنة التحكيم العليـا تفحص اللوحات بالترتيب الابجدى ، ولما كانت اللوحات تتجـاوز فى عددها الفا وخمسمائة لوحة ، فقد وضح أن من المستحيل أن تفرغ اللجنة من قراراتها فى اسبوعين ..

وبينما كان يسير ذات مساء فى بوليفارد دى كليشى ، خفق قلبه بعنف حين تعرف على استاذه القديم « بوجراند » بقامته المتوسـطة وكتفيه العريضين ووجهه الباسم الزاخر بالعطف والمحبة ..

وكان « بوجراند » هو الذى بدا عليه الارتباك من هذا اللقـاء المفاجىء ، وكان هو ايضا الذى بدأ الحديث قائلا :

ــ ان الامور لا تسير بهدوء وبساطة فى قصر الفن ، ولـكن الامل لا يزال قائماً بالنسبة لك .. ولكننى و « فاجيرول » فى جانبك دائما .. ويمكنك ان تعتمد على « فاجيرول » اكثر منى .. لاننى اخشى ان أقول شيئا طيبا عنك فأفسد كل شىء ..

وكانت تلك الحقيقة .. ذلك ان « بوجراند » كان فى خـلاف دائم متصل الحلقات مع استاذ الفن المشهور « مازيل » ، ورئيس لجنة التحكيم العليا .. كان الاثنان يتبادلان الابتسامات والمجاملات أمام

الناس ، ولكن الويل لصاحب اللوحة التى يقرظها « بوجراند » .. ان « مازيل » فى هذه الحالة لا يهدأ حتى يظفر من الاعضاء بقرار رفضها أيا كانت روعتها وعظمة لمساتها الفنية .. وكان « بوجراند » مضطرا لان يقابل « مازيل » بالمثل فيصر على رفض اية لوحة يعلم انه راض عنها ..

وكانت هذه الخصومة من الاسباب الخفية التى ادت الى رفض جميع اللوحات التى تقدم بها « كلود » فى السنوات العشر الاخيرة .. اذ كان « مازيل » يعلم مدى حب « بوجراند » لـ « كلود » وتقديره لفنه وايمانه بعبقريته .

أما « فاجيرول » الذى كان على علم بمناورات اعضـــاء اللجنة ، فقد بدأ منذ انتخابه عضوا ، فى اتخاذ موقف محايد ، مع التلطف للجميع بلا استثناء ، والعمل على اضحاكهم بالعبـــارات اللاذعة ، والفكاهات المضحكة ، والتعليقات المثيرة . وبهذه الوسيلة كان يظفر بموافقة الاعضاء على اللوحات التى يريدها ..!

ولم تكن عملية فحص اللوحات المقدمة بالامر السهل .. كان اعضاء اللجنة العليا يمرون فى القاعات ، الواحدة بعد الاخرى ، من الصباح حتى الظهيرة ، ثم يعودون الى المرور حتى توشـــك الشمس عـــلى المغيب .. وفى كل يوم لم يكن عدد اللوحات التى يتفق الاعضاء على قبولها يزيد على ستين أو سبعين لوحة .. وكثيرا ما كانت المناقشات تحتدم ، وتضيع الساعات قبل أن يتقرر قبول او رفض لوحـــة واحدة ..!

ولم تكن عملية الاختيار تجرى بعيدا عن الجمـــاهير .. وانمـــا كانت هذه الجماهير تحتشد وراء حواجز من الحبال لتشاهد ما يجـــرى فى القاعات الكبرى لقصر الفن .. كانت تشاهد اعضاء لجنة التحكيم وهى تتنقل بكامل هيئتها الى احدى القاعات ، ثم تجلس الى المائدة المستطيلة ، ثم تبدأ فى فحص اللوحات التى تعرض عليها ، الواحدة بعد الاخرى ، فاذا فرغت من احدى القاعات ، انتقلت الى غيرها .. وهكذا ..

وجاء أخيرا دور لوحة « طفل على فراش الموت » للعـــرض امام اللجنة ، وكان « فاجيرول » قد امضى اسبوعا كاملا وهو يحاول ارضاء

عدد كبير من الاعضاء حتى يضمن موافقتهم وختمهم للتصـــويت فى جانب « كلود » .. الا أنه كان يصطدم بالنفور والمعارضة كلما ورد ذكر « كلود » على لسانه ، وكذلك كان يشـــكو من ان « بوجراند » لا يعاونه فى هذا السبيل ، رغم علمه ان أية كلمة ثنـــاء ينطق بها « بوجراند » على « كلود » امام « مازيل » ستكون هى القاضية على كل آماله ..

ولو كان « كلود » شخصا غريبا عن « فاجيرول » لأصر هذا على رفض لوحة « طفل على فراش الموت » ولو أدى الامر الى استقالته من عضوية لجنة التحكيم ، لان اللوحة ــ رغم اللمسات العبقرية فى رسمها ــ كانت منفرة ، تثير الانقباض والشعور بالتعاســة فى نفس كل من يراها ..

وكان « فاجيرول » من اصحاب نظرية « الفن هو الجمال » ..

الا انه رغم هذا كان قد أصر ان يجرب نفوذه فى ذلك المرســـم ، ويعرف هل هو قادر على قيادة اعضاء اللجنة لتحقيق اغراضه أم لا ..

وتصادف ان كان « مازيل » ــ رئيس اللجنة ــ فى حالة معنــوية سيئة فى ذلك اليوم .. ومما زاد الامر سوءا أن أحد السـعاة أقبـل مسرعا عند افتتاح الجلسة ، وهتف قائلا لرئيسها :

ــ مسيو « مازيل » .. لقد حدث خطأ رهيب أمس .. ان اللوحة رقم ١٥٩٣ .. وهى كما تعلم لوحة « بنت الطبيعة » التى تمثـل امرأة عارية تحت شجرة قد وضـعت بين المرفوضات ..

وكان هذا ما حدث فعلا .. لقد رفضها أعضاء اللجنـــة وامروا بالقائها على كومة المرفوضات قبل ان يتحققوا من اسم الفنان الذى رسمها . وقد ظهر بعد ذلك انه واحد من اشهر اساتذة مدرســة الفنون الجميلة الذين اختـــيرت بعض لوحاتهم للعـرض فى متحف اللوكسمبرج ..

وفزع « مازيل » مما حدث .. وخشى ان يتسرب الخبـــر الى الصحف فتتخذ منها مادة للسخرية من الفن والفنانين ، ومن ثم أمر بأصلاح الخطأ ، واعادة اللوحة فورا الى مكانها بين اللوحات المقبـولة ، وقد قال معتذرا :

ــ ان يوم أمس كان من الايام العصيبة التى كثرت فيها المشاحنات

والمناقشات .. هذا فضلا عن حرارة الجو فى هذه القاعات .. اننا لسنا انبياء معصومين من الخطأ !

ثم قرع على جرسه بقوة وأعلن افتتاح الجلسة قائلا :

ــ ننا سنبتدىء .. فنرجو من الجميع الانتباه اذا سمحوا ..

وشاء سوء الحظ أن يزيد من ارتباك « مازيل » فى نفس اليوم ، اذ ما كادت بعض اللوحات تعرض حتى نظـــر الى لوحة منها وزم شفتيه وطحن على أضراسه من فرط الاشمئزاز والنفـــور وهمس قائلا لمن حوله :

ــ ما هذا العبث الرهيب ؟ لم يبق الا أطفال المدارس الاوليـــة ليتقدموا الينا بانتاجهم الفنى ..

وانحنى ليقرأ اسم المتقدم بهذه اللوحة « المنفرة » ، واذا هو يعتدل مصدوما مرتبكا .. لقد كان واحدا من تلاميذه الذين وعدهم بقبـــول لوحاتهم فى هذا الموسم بأى ثمن !

ومن ثم عاد يقول وهو يرجو ألا يكون أحد قد سمع همســـاته الاولى :

ــ يا لها من لوحة رائعة .. من هو هذا الفنان الملهم الذى رسمها؟!

وضحك اعضاء اللجنة فى اكمامهم ، ووافقوا على قبول اللوحة ، وحملت للعرض بين اللوحات المقبولة . ولكن « مازيل » لم يكـــن سعيدا بهذا الانتصار ، وانما ازداد احساسه بالتوتر والضيق ..

ولم يكن « مازيل » فى الواقع هو الوحيد الذى يعانى هذا الوضع ، فان كل عضو فى اللجنة كان يشترك معه فى هذه المأســـاة .. كان يغمغم معربا عن نفوره الشديد من احدى اللوحات عند النظرة الاولى ، ثم لا يلبث ان يتراجع ، ويمتدحها بعد ان يعرف انها احدى لوحات أحد « المحاسيب »

وهكذا أخذ الجميع حذرهم بعد ذلك .. فاذا عرضت لوحة تافهة بريشة احد « المحاسيب » أو أحد أعضاء اللجنة ، تبادل الجميـــع الاشارات ــ من وراء ظهر العضو ــ قائلين :

ــ حاذر .. انها من اللوحات المقبولة حتما ..

وبرغم هذا الجو المشحون بالتوتر ، استطاع « فاجيرول » ان يظفر بالجولة الاولى حين جعل اعضاء اللجنة يوافقون على لوحة بريشـــة تلميذ واسع الثراء ، من تلاميذه ، وكانت اسرته قد اقامت سلسلة

من المآدب تكريما لـ « فاجيرول » قبل انتخابه عضـــوا ، وبعد الانتخاب ..

وكان « فاجيرول » بارعا فى مناوراته .. اذ بدأ أولا وهمس فى اذن « مازيل » رئيس اللجنة ، بأن صاحب اللوحة فنان فقير يعول اسرة كبيرة ، واذا لم تقبل لوحته فى هذا المرسم ، فسوف يموتون جوعا .. ورغم ان « مازيل » رد قائلا ان الفنان الذى يعجز عن اطعام نفســـه واسرته من فنه ، يحسن به ان يهجر الفن ويبحث عن عمل آخر .. رغم هذا ، فقد رفع يده مع « فاجيرول » موافقا .. ولكن بقية اعضاء اللجنة احتجوا ورفضوا .. وعندئذ همس « فاجيرول » الى أقرب عضو اليه وقال :

ــ ان « مازيل » فى الحقيقة هو الذى رجانى للموافقة على قبـــول هذه اللوحة ، ولاشك اننى مضطر بقبول رجائه كما تعلم ..
وسرى الهمس بين اعضاء اللجنـــــة بأن « مازيل » هو الذى يؤيد قبول هذه اللوحة مستترا وراء « فاجيرول » ..
وعلى هذا النحو قبلت ..
وتعالت بعد ذلك الهتافات والضحكات والتعليقات اللاذعة والصفير حين عرضت لوحة « طفل على فراش الموت » ، وقال احدهم معلقا :
« لم يبق الا ان يرسموا لنا المشرحة فى الموسم القادم » . واخـــذ اعضاء اللجنة الشبان يتندرون على حجم رأس الطفل ، وقال احدهم أنه يشبه النسناس الذى مات مختنقا بتفاحة . أما الاعضاء الكبار ، فقد جفلوا من منظر اللوحة الرهيب !

وادرك « فاجيرول » من اللحظة الاولى أنه لا أمل له فى الظـــفر بموافقة اعضاء اللجنة عليها بالطرق السليمة أو الملتوية ، ولكنه قرر أن يتخذ اسلوبا جديدا فى مناوراته ، فراح يشترك فى التنــــدر على اللوحة ، ثم يقول فى لهجة المشفق :
ــ هلم يا زملائى .. انها بريشة فنان قديم مكافح اشترك فى هذه المسابقة نحو عشر مرات .. ولهذا يجب ..

وقاطعته الاحتجاجات من كل جانب .. انهم يعرفون ذلك الداعى الاحمق .. انه « كلود » المجنون الذى يصرخ فى وجهك بألوانه العجيبة وخطوطه الرهيبة .. انه المغرور الذى يشيع فى كل مكان انه سيزلزل

قصر الفن بأعماله ، وسيكتسح كل الفنانين الكبار امامه ويلقى بهم فى عالم النسيان ، ومع ذلك فانه لم يستطع ان يقدم عملا له قيمته فى اى يوم ، أو آية مناسبة ..

وقال « فاجيرول » فى اصرار وعناد :

ـ انكم غير منصفين .. وما ينبغى ان نتحامل على فنان لما يشاع عنه .. نعم يجب ان نتحرر من كل تحيز ضده حتى نستطيع ان نحسن الحكم له أو عليه ..

وانهالت الحملات عليه من كل جانب ، وصاح أحد أعضاء اللجنة الحاقدين عليه :

ـ انك عار علينا .. وما كان يجب أن تنضم الينا بهذا الانتخاب..

وقال آخر :

ـ انك تدافع عن هذا المخبول حتى ينشر اسمك فى الصحف ..

وقال ثالث :

ـ انك لست اهلا لان تكون عضوا فى لجان التحكيم ..

وبلغ الغضب ب « فاجيرول » حدا جعله يتخلى عن لياقته وتلطفه ومن ثم صاح قائلا :

ـ انني أحق منكم جميعا بعضوية هذه اللجان ..

وجاء الرد اللاذع فورا من عضو له شعر أصفر فى لون الرمل :

ـ هذا هو رأيك فى نفسك .. ونحن غير ملزمين به ..!

وصاح آخر :

ـ المعروف فى جميع الاوساط أنك أحد اصدقاء هذا الفنان الدعى الاحمق ..!

وتعالت الاصوات من كل جانب ، واستطاع « فاجيرول » اخيرا ان يجعل صوته مسموعا ، فقال :

ـ حسنا .. حسنا .. لنأخذ الاصوات ..

وكان « مازيل » فى خلال هذا كله لا يكف عن قرع جرسه ليعيد الى الجلسة هدوءها ونظامها .. وكلما عجز عن هذا ، ازداد سخطا وغضبا ، واخيرا قال بصوت مرتفع :

ـ كفى ايها السادة .. لا داعى لكل هذا الصياح .. انني اطلب منكم ..

وأمكنه فى النهاية أن يعيد السكون الى الجلسة ، وكان فى قرارة

نفسه رجلا رحيم القلب .. ومن ثم راح يفكر . لماذا نحرم هذا المسكين من قبول أحدى لوحاته وهو فى الواقع لا يقل عن كثير من الذين قبلنا لوحاتهم ! حقا أنها لوحة رديئة الى أقصى حد .. ولكن هل هى اللوحة الوحيدة الرديئة ؟!

وقال أخيرا :

ــ لقد طالب أحد الاعضاء بأخذ الاصوات .. وعلينا أن نحكم ضمائرنا وعقولنا دون عواطفنا ..

وفيما كان يهم بأن يرفع يده معلنا قبول اللوحة ، اذا بغريمه اللدود « بوجراند » ينفجر قائلابعد ان عجز عن كتم عواطفه :

ــ ياللسماء أيها السادة .. أعلن لكم أنه لا يوجد أربعة فى هذه القاعة لديهم الشجاعة لرسم مثل هذه اللوحة الخالدة .. !

وسرت الدمدمة بين الجميع وقد عجزوا من فرط الغضب والاستنكار عن الصياح بالرد المناسب .. وعاد « مازيل » يقول فى ازدراء :

ــ ايها السادة لنأخذ الاصوات ...

وكانت نبرات صوته تنم بوضوح على أنه لن يقبل هذه اللوحة مهما يكن الثمن . وهكذا لم ترتفع بالموافقة غير يدى « بوجراند » و « فاجيرول » .

ورفضت اللوحة .. ولم يبق لها من أمل الا فى الفحص النهائى ..

وكانت عملية الفحص النهائى شاقة عسيرة .. فبعد ثلاثة أسابيع من العمل فى الفحص التمهيدى ، استراح الاعضاء يومين حتى يتاح للسعاة اعادة ترتيب وتعليق اللوحات التى سيجرى عليها الفحص النهائى ، وهى اللوحات التى لم ترفض باجماع الاراء ..

ومرة أخرى احتدم الجدل والنقاش حول لوحة «طفل على فراش الموت » ولكن الجدل فى هذه المرة اتخذ طابع السخرية المريرة والتندر القاتل .. واشترك « فاجيرول » فى السخرية أرضاء للاعضاء واكتسابا لمودتهم ، فقال :

ــ لا تخجلوا ايها السادة .. لا تخجلوا .. القوا عليها نظرة أخرى وسوف ترون انها تستحق الثمن الذى يمكن أن تدفعوه فيها .. نعم أيها السادة .. أرجو أن تكونوا كرماء وان تحملوها عنى ..

وانطلقت الضحكات من كل مكان ، وقال احدهم :

ـ ولماذا لا تقبلها أنت بدافع الاحسان !!

وكانت التقاليد قد جرت فى الصالون الفنى ان يكون لكل عضو الحق فى الحصول على موافقة بقية الاعضاء على لوحة يختارها بدافع « الاحسان » . وكان هذا التقليد يهدف الى معاونة الفنانين الفقراء. ولما كان عدد اعضاء اللجنة أربعين عضوا ، فقد كان من المقرر ان تقبل أربعين لوحة «بدافع الاحسان» .. وكانت هذه اللوحات تشبه المتسولين الذين يتوافدون ليأكلوا ما تبقى على موائد السادة .. !!

وفوجىء « فاجيرول » بهذا الاقتراح .. وكان يدرك ان « كلود » لو علم به لمات كمدا .. ومن ثم قال وهو يحاول تلطيف الجو :

ـ بدافع الاحسان .. ولكننى قبلت لوحة على هذا الاساس بريشة سيدة تدعى ..

وكان حقا قدقبل بدافع الاحسان لوحة لسيدة من صديقات « أيرما بيكو » .. ولكن الاعضاء قالوا :

ـ أحقا ؟ .. وهل هذه السيدة جميلة يا « فاجيرول » .. لابد أن تدعونا يوما للتعرف عليها !

وقال بعضهم :

أذن فليقبلها السيد « بوجراند » احسانا ..

ورفع « بوجراند » يديه احتجاجا وصاح قائلا فى استنكار شديد :

ـ أنا ؟ .. هل جننت حتى أوجه مثل هذه الاهانة الى فنان عبقرى ، لا ياسادة !!

دعوه يتعلم كيف يحترم نفسه ويأبى بعد ذلك ان يخضع لوحاته لفحص فنانين أقل منه عبقرية ونبوغا .. !

وسرت الدمدمة مرة اخرى .. وقال احدهم :

ـ هل توافقون على أن يكون لـ « فاجيرول » حق قبول لوحة ثانية بدافع الاحسان ..؟!

ورفع الجميع ايديهم بالموافقة ..

وقال « فاجيرول » فى صوت المغلوب على أمره :

ـ حسنا .. اننى أقبل هذه اللوحة على هذا الاساس ..

وتعالت الهتافات من كل جانب .. هتافات ممزوجة بالضحكات الساخرة التى ملأت لحظة النصر ، بكل ما يمكن من مرارة وقسوة .

الفصل الحادى عشر

العالم المجهول

أرسل « فاجيرول » فى صباح اليوم التالى رسالة قصيرة موجزة الى « كلود » يقول له فيها أنه استطاع فى النهاية – وبعد مجهود كبير – أن يظفر له بالموافقة على قبول لوحة « طفل على فراش الموت » فى مسابقة الصالون الفنى لهذا العام ..

وشعر « كلود » بالبهجة الممزوجة بالمرارة ، مرارة النصر ، لانه استشف من لهجة الرسالة أن لوحته لم تقبل لذاتها ، وانما لان « فاجيرول » كافح من أجل الظفر بالموافقة على قبولها ... !

وظل الشعور بالمرارة يزداد حتى ابتلع الاحساس بالبهجة والنصر ، حتى فكر « كلود » فى سحب اللوحة من المسابقة ، رغم قبولها ، ثم القائها فى مكان بعيد عن الانظار .. !

ولكن احساسه المرهف ظل يتخاذل ، وتتخاذل معه كبرياؤه كفنان أمام لهفته العارمة طوال سنوات عديدة للحصول على النصر فى مسابقة هذا الصالون الادبى .. ذلك أن قبول لوحة له فى هذه المسابقة – مهما كانت وسيلة القبول – معناه أنه أصبح فنانا معترفا به فى جميع الاوساط ...

لقد قبلت اللوحة وانتهى الامر .. فماذا يهمه بعد ذلك ؟ !

وبعد أن تلاشت آخر ومضة من الكبرياء ، بدأ ينتظر افتتاح معرض اللوحات المقبولة فى قصر الفن بلهفة التلميذ الناجح الذى يريد أن يرى اسمه فى الصحف .. !

وفى خلال الايام السابقة على افتتاح المعرض ، راح يقتات من

احلام اليقظة التى تصور له هتاف الجماهير وهى تستقبل لوحته على أنها من اللوحات الخالدة .. !

وكان من بين التقاليد التى رسـت دعائمها على مر السـنين فى باريس ، تقليد اليوم المعروف فى الاوساط الفنية باسـم « يوم التلميع » وهو اليوم الذى خصص للفنانين الناجحين فى المسابقة ، ليضعوا اللمسات الاخيرة أو ليهذبوا بلمسات أخيرة لوحاتهم قبل عرضها على الجماهير .. ولكن الجماهير المشغوفة بالفن والفنانين فى باريس كانت تهتم بهذا اليوم أكثر من اهتمامها بافتتاح المعرض نفسه .. لان فى مقدورها فى مثل هذا اليوم أن ترى الفنانين وهم يضعون اللمسات الاخيرة فى لوحاتهم المقبولة ..

وكان رجال الصحافة ينتهزون هذه الفرصة ويثيرونها ضـجة هائلة فى جميع الصحف لمدة اسبوع .. ومن ثم كانوا يتسابقون فى نشر كل ما يستهوى الرأى العام عن الفنانين الفـائزين .. عن مذاهبهم ، ورسائلهم فى الرسم ، وعن حياتهم الخاصة .. وعمـا يحبونه أو يكرهونه من الوان الطعام ، وعن سـهراتهم ونزواتهم وغرامياتهم .. وما الى هذا كله ..

وشعر « كلود » فى أول الامر بالخوف من « يوم التلميـع » المشهور ومن جماهير الطبقات الارسـتقراطية التى تتزاحم على قاعات قصر الفن فى هذا اليوم .. وكان يرى أن ينتظر يوم افتتاح المعرض ويتسلل الى قاعاته ويرى تأثير لوحته على المتفرجين .

ولكن انفعالاته بلغت زروتها فى بكور ذلك اليوم ، فاذا هو يغير رأيه ويقرر الاشتراك فى « يوم التلميع » فغادر مسكنه فى الثامنة صباحا ، وانطلق فى الطريق الى قصر الفن وكانت « كريسـتين » تتمنى أن تذهب معه ، ولكنها لم تجد الشجاعة الكافية لمواجهـة الجماهير ، فاكتفت بتقبيله عند خروجه والقول له :

ــ مهما حدث يا حبيبى ، فلا تفقد شجاعتك .. !

وكان الجو صحوا فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو ، والسـماء صافية ، ونسمات من الهواء الرطيب تمسح على الوجوه الملتهبـة بالحماس والانفعالات .. وكان مدخل قصر الفن يحمل رائحـة زيوت التلميع المنسابة من داخل احدى القاعات ممتزجة بشذى المسك

الذى تتعطر به نساء باريس الأرستقراطيات ..

ووقف « كلود » فى مدخل احدى القاعات يلتقط أنفاسه .. وراح يتأمل اللوحات المعروضة على الجدران .. عشرات بعد عشرات حول الجدران وفى صفوف بعضها فوق بعض ، لا يفصل اللوحة عن الاخرى غير مسافة يسيرة من جميع الجوانب ..

وبدت له اللوحات عجيبة فى اطاراتها المذهبة الرخيصة .. لوحات من كل لون ومذهب .. مناظر طبيعية ، ونساء عرايا ، ورجال فى أوضاع غريبة، وشوارع وحوانيت وغرفات مظلمة تحت الارض .. وحانات وبنات الليل وسكارى .. كل هذا كان يطل من الجدران على جموع المتفرجين من الرجال والنساء الذين يمثلون الطبقة الراقية فى باريس .. الرجال بملابسهم الرسمية ونياشينهم وأوسمتهم ، والنساء فى ملابسهن الفاخرة ، ومعاطفهم الثمينة وأوسمتهم النادرة .. وعطورهن .. وبسماتهن ...

وكان معظم المتفرجين يعرف بعضهم البعض .. فهم يتبادلون البسمات أو التحيات من بعيد، أو يتصافحون، أو يقفون متحدثين وهم يرون بعض الفنانين الذين وقفوا فى الاركان يضعون اللمسات الاخيرة للوحاتهم ..

وتحرك « كلود » للبحث عن لوحته .. وقرر أن يمر بالقاعات بالترتيب الابجدى حتى لا يضل طريقه ، وحتى لا يكرر دخوله احداها أكثر من مرة .

ورغم هذا الاحتياط ، فقد مر على جميع القاعات ، ثم عاد الى نقطة البدء دون أن يرى للوحته أثرا .. وأعاد الكرة مرة أخرى فى تمهل . وكانت جماهير الطبقة الراقية تتوافد وتحتشد لحظة بعد اخرى .. ولما عجز فى المرة الثانية عن رؤية لوحته ، رأى — وهو واجف القلب — أن يفتش عنها فى الغرفات الصغيرة الواقعة وراء القاعات الكبرى ، حيث عرضت اللوحات التافهة الرديئة التى قبلت بدافع « الاحسان » !

وتنهد فى ارتياح عندما لم يجد أثرا للوحته فى هذه الغرفات .. لقد كان يفضل الف مرة أن يراها ملقاة فى قاع السين على رؤيتها معروضة فى احدى هذه الغرفات

وفيما هو يعود الى نقطة البدء ليكرر المحاولة مرة ثالثة ، دخل القاعة المركزية الكبرى المخصصة لعرض لوحات مشاهير الفنانين فى ذلك العصر .. وكانت هذه القاعة مزدحمة بأشهر شخصيات باريس .. اشهر رجال الصحافة والادب والنقد الفنى ، وأشهر رجال الأعمال وأصحاب الملايين من رعاة الفن والفنانين ، واشهر سيداتها وغانياتها وممثلاتها ومطرباتها ..

كانت القاعة المركزية وحدها معرضا لكل مافى باريس من أبهة وفن وجمال .. ولم يسع « كلود » الا أن يقف مبهورا أمام هذا كله .. وازداد انبهارا وهو يرى خلاصة المجتمع الباريسى ينظرون فى اعجاب وتقدير الى لوحة تمثل رجلين وبعض النساء — احداهما عارية — يتناولون الفداء فى الخلاء.. فى ساحة معشبة فى قلب احدى الغابات ..

وأدرك « كلود » انه امام لوحة « فاجيرول » المسماه « نزهة فى الخلاء » .. وكان الجميع يمتدحونها ويتغنون بتقريظ « فاجيرول » — عبقرى عصره — ويتسابقون فى الكشف عن جمال اللوحة ، وعن براعة خطوطها ، وروعة الظلال والاضواء فيها ..

ورأى « كلود » صديقه « فاجيرول » — من بعيد — يدخل القاعة ، فتستقبله الجماهير الراقية — خلاصة مجتمع باريس كأنه قائد عائد من معركته ، متوج الهامة بأكاليل النصر .. وراح « فاجيرول » والابتسامة الهادئة لا تفارق شفتيه ، يصافح الايدى الممتدة اليه ، ويلقى بكلمة هنا ، وبعبارة هناك ، ويبتسم لهذه الحسناء ، ويربت وجنة هذه العذراء ، وكان « كلود » يرى هذا كله فيما يشبه الحلم الرهيب .. انه يرى المجتمع على حقيقته .. يرى الرأى العام حين يتأثر تأثرا جماعيا بشىء لايفهمه .. ان لوحة «فاجيرول » لاتزيد عن لوحة عادية يمكن لاى فنان مبتدىء أن يرسم أجمل منها .. ولكن الصحافة المأجورة ، والنقاد المأجورين ومن ورائهم التاجر الذكى الماكر « نوديث » بأمواله ، ظلوا يتابعون النشر والتنويه بعبقرية «فاجيرول » حتى أصبح « لعبة » الجماهير فى ذلك الموسم !

وازداد احساس « كلود » بالاسى والمرارة ، لا لنفسه ، وانما لاستاذه « بوجراند » الذى عرض فى نفس القاعة لوحة أخرى حاول

بها ان يتفوق على لوحته الخالدة المعروضة فى اللوكسمبورج باسم « زفاف فى القرية » . وكان « بوجراند » قد امضى عاما كاملا وهو يرسم هذه اللوحة الجديدة التى سماها « جنازة فى القرية » محاولا ان يثبت للمجتمع ان عبقريته لم تتوقف عند لوحته « زفاف فى القرية »

ولكن المجتمع نفر من اللوحة الاخيرة .. كان كل من ينظر اليها ، لا يحاول ان يكرر النظر ، وانما يندفع للاشتراك فى ترديد الثناء — كالببغاء — على « فاجيرول » وعبقريته ...

وفيما كان « كلود » يهم بمغادرة القاعة قبل ان تقع نظرات « فاجيرول » عليه ، رأى « بوجراند » واقفا بجانبه ينظر فى صمت وترفع جميل الى مايجرى فى هذه القاعة المركزية ..

وتمتم « كلود » فى اضطراب قائلا :

— معذرة يا سيدى .. اننى لم أرك الا الان ..

وابتسم « بوجراند » فى وداعة وقال :

— لا عليك .. يبدو أن صديقنا « فاجيرول » هو فاكهة الموسم هذا العام .. اننى لا أستطيع ان اغالط نفسى وأقول أنه فنان عبقرى .. انه فنان عادى جدا ، ولكنه لطيف ومهذب ويعرف كيف يعامل الناس .. لقد كان كريما وشهما فى مجهوده الذى بذله مع اعضاء لجان التحكيم حتى وافقوا على قبول لوحتك ..

وغمغم « كلود » بكلمات غامضة ، ثم حاول أن يعرب عن اعجابه بلوحة استاذه « بوجراند » « جنازة فى القرية » فقال :

— ان المقبرة الواقعة فى خلفية الصورة مرسومة باعجاز ياسيدى .. ولست أدرى كيف غفل هؤلاء ..

فقاطعه « بوجراند » بصوت أجش قائلا :

— لا داعى للمجاملات يا ولدى .. اننى لست غافلا عن الحقيقة !

وفيما هما يتحادثان أقبل عليهما التاجر « نوديث » بملابسه الفاخرة ، وبكل مظاهر الابهة والنجاح ، وقال لـ « بوجراند » :

— طاب صباحك يا سيدى .. لا شك أنك جئت لتعرب عن اعجابك بصاحبى « فاجيرول » .. !!

وأومأ « بوجراند » برأسه ، وترك الرجل يثرثر بأخبار نجاحه

ونجـــاح « فاجيرول » معه ، وابتسم فى وداعة حين قال « نوديث » فى النهاية :

ــ هذه اذن لوحتك الاخيرة يا مسيو « بوجراند » ــ جنازة فى القرية ــ لو أنك استشرتنى ، لنصحتك بعدم رسمها .. انك تريد أن تتفوق بها على لوحتك الخـــالدة ــ زفاف فى القرية ــ أليس كذلك ؟ .. ولكن اللوحة الاولى لا نظير لها .. انها معجزة .. !

وقال « بوجراند » وهو يحاول جاهدا أن يخفى شـــعوره بالاسى والمرارة :

ــ نعم .. نعم .. انك على حـــق يا مســـيو « نوديث » .. كان يجب ان أتريث قبل ان أرسم هذه اللوحة ..!

وهنا لمح « نوديث » « فاجـيرول » فى طريقـــه الى الانصراف من القاعة ، فهتف قائلا وهو يحاول اللحاق به :

ــ آه .. أستأذنكما .. اننى اريد أن الحق بـ «فاجيرول» ..

وشعر « كلود » بالحزن يفيض فى قلبه وهو يرى اســـــتاذه « بوجراند » ثابتا فى مكانه ، لا يتحرك أو يريم ، وكأن كبرياءه تأبى عليه أن يتراجع ، وانما هى تدفعه لان يثبت أمام الهزيمة ، كجندى مناضل ، يفضل ان يموت فى المعركة ، مستغفرا لاهل وطنـــه الذين نسوا كل أمجاده ، ولم يذكروا الا هزيمته !..

ولما قال شيئا لـ «بوجراند» دون أن يجيب هذا عليه ، ادرك أن الجندى العجوز يعانى رغم هدوئه وابتسامته المرفرفة على وجهه ، من عذاب الروح ومرارة الالم .. ومن ثم قرر أن يلتزم الصمت ، وأن ينسحب فى هدوء حتى لا يزيد من شعور استاذه بالحرج ..

وغادر القاعة المركزية وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، لماذا عجز حتى هذه اللحظة عن العثور على لوحته ؟ وأدرك فورا السر .. لاشك أن هناك ، فى مكان ما بقصر الفن ، غرفة لم يدخلها بعد .. غرفة مزدحمة بالضاحكين والساخرين والمتندرين كما حدث ــ قبـل ذلك بعشر سنوات ــ عند عرض لوحته «مع الطبيعة» بين المرفوضات .. ومن ثم راح ينتقل من مكان الى اخر وهو يرهف السمع عسى ان يسمع هتاف الضاحكين الساخرين .

وكاد أن ييأس فى النهاية .. ولكنه عاد ودخل احدى الغـــرفات

التى تكدست فيها لوحات الفنانين المغمورين والفقراء والبؤســـاء ..
اللوحات التى قبلت بدافع الاحسان .. ووقف فى تلك القاعة الصغيرة المكدسة بأعجب اللوحات وأغربها واكثرها شذوذا .. ولم يكن فيها غير ثلاثة أو أربعــــة من المتفرجين الذين دخلوها خطأ ، ثم راحوا ينصرفون بسرعة وكأنما يفرون من شىء مزعج ..!

ورفع « كلود » عينيــــه فجأة الى أعلى .. الى مكان قريب من السقف ، ثم تسمر فى موقفه وقد شعر بجفاف مفاجىء فى حلقه ..!

هناك — فى أعلى صف — بالقرب من السقف ، راى لوحة ابنه المتوفى « جاك » معلقة بين عشرات من لوحات « الاحسان » وكأنهـــا جثة طفل صغير وضعت خطأ بين هياكل وحشية مفزعة ..

كانت بجانبها لوحة هائلة عرضها عشرة أمتار وارتفاعها أربعة ، تمثل الطوفان .. عالم من البشر فى ألوان صفراء وخضراء وزرقاء تنافح الموت فى مياه حمراء كاسحة ..!

وعلى يسارها لوحة أخرى لاتقل وحشية .. لوحة قائد فى معركة يتلقى الطعنة القاتلة ..!

اذن فهذه هى لوحة طفلة « على فراش الموت » .. اللوحـــة التى ظل يحلم بأنها ستدفع الجماهير الى الهتاف لها ، والى اعتباره فتحا جديدا فى عالم الفن ..!!

وظل « كلود » واقفا ، شاخص البصر الى « الجثة الصـــغيرة » المعلقة بين تلك الجثث الهائلة .. ولم يدر ماذا يفعل .. بل لم يكن يشعر هل هو حزين أم تعس أم .. أم ماذا ؟!

انه لايدرى ..!

لقد شـــعر أن عواطفه قد تجمدت فى هذه اللحظة .. ولكنه أفاق فجأة حين رأى رجلين فى ملابس رسمية فاخرة مزينين بالنياشـــين والاوسمة ، يدخلان ثم يقفان فى وسط القـــاعة ويتبادلان الحديث وهما ينظران الى أعلا .. الى لوحة ابنه المعلقة ..

بدأ الامل يراوده .. وأخذ يتقدم منهمـــا فى هدوء لينصت الى حديثهما — ومن يدرى .. لعله يسمع عبارات الثناء على لوحته ..

وسمع الرجل البدين يقول :

— ماهذا ؟.. لوحة اسمها « طفل على فراش الموت » ؟.. أى

مجنون رسمها . وقال الاخر النحيل وهو يشيح بوجهه :

ــ لسوف أطالب المحافظ أن يأمر رجال الشرطة برفع هذه اللوحة الرهيبة من هذا القصر .. انها سبة فى جبين الفن ..!

ولم يستطع « كلود » أن يحتمل أكثر من هذا .. فانطلق يعدو الى خارج القصر ..

وظلت « كريستين » تنتظره ساعة بعد ساعة حتى أوشك الليل أن ينتصف ، فخرجت تبحث عنه .. وبعد أكثر من ساعة ، عثرت عليه واقفا فى منتصف القنطرة ، يرنو الى مياه السين المظلمة ، وكأنما ثمة شىء فى عالم المجهول يجذبه اليه .

وقالت له وهى تمضى به الى البيت :

والقت « كريستين » بنفسها على « كلود » وامسكت بذراعه ،

ــ « كلود » .. ماذا بك ؟ هلم الى بيتنا .. ألم أطلب منك ألا تفقد شجاعتك مهما حدث ..؟!

وسار بجانبها وكأنه يسير فى حلم مزعج ..



الفصل الثانى عشر

نداء المجهول

ظل « كلود » ثلاث سنوات أخرى يعمل فى لوحته الضخمة « قلب باريس » أياما متتالية ، أو أسابيع ، أو شهور ، حسب طاقة حماسته ثم ينصرف عنها أياما أخرى أو أسابيع ، أو شــــهورا .. وفى خلال الفترة التى ينصرف فيها عنها ، كان يرسم لوحات صغيرة للاسواق الشعبية .. يرسمها بالجملة ، ويبيعها بالجملة ، ويقدم ثمنهـــا لـ « كريستين » حتى تدبر به أمرها خلال الفترة التالية التى يشتعل فيها حماسا للعمل فى لوحته الضخمة ..

وكانت «كريستين» قد راضت نفسها على هذا الوضع وهى تأمل فى مجىء اليوم الذى يفــرغ فيه من هــــذه « اللوحـــة » ، أو يحرقها وينفض يديه منها نهائيا .. وكثيرا ما كانت تقف أمام المرأة العارية فى وسط اللوحة وتنظر اليها وكأنها تنظر الى عدوة لدود استطاعت أن تنتزع منها زوجها رغم ذلك الحب القوى الذى ربطهما ســـنوات عديدة .. !

ولكن أشد ما كان يهمها ويفزعها ، تلك النظرة الغامضـــــة التى ترتسم فى عينى «كلود» كلما عثرت عليه واقفا فى سكون الليل فوق القنطرة ، يرنو الى مياه السين المنسابة ســـوداء ملفوفة فى رداء الليل ..

وحدث ان أقبل « ساندوز» ــ الصديق الوفى ــ لزيارة « كلود » ذات أصيل بعد الاحداث السابقة بثلاثة أعوام ، فرأى « كريستين » جالسة بمفردها غارقة فى دموعها ، يهتز جسدها كله من فرط البكاء، فأسرع اليهـــا ، وطوق عنقها بحنان الشقيق العطوف .. وكان فى

السنوات الاخيرة قد اتخذها أختا له يرعاها ولا يبخل عليها بشيء..
وقال لها بعد أن هدأت :
ـ ماذا بك يا عزيزتى ؟ أين « كلود » .. ؟
ـ خرج كعادته .. وان النظرة الغامضة تزداد وضوحا فى عينيه يا « بيير » ولشد ما أخشى ان اراه يوما فاقد العقل !
وكان « ساندوز » يخشى هذا أيضا ، ولكنه أخفى قلقه عن « كريستين » وقال لها :
ـ لا .. ان « كلود » بخير .. ولكن تفكيره الدائم فى هذه اللوحة اللعينة هو الذى يرسم هذه النظرات الغامضة فى عينيه .. أين هو الان .. ؟
فقالت بصوت متهتدج بالبكاء :
ـ خرج كعادته هائما على وجهه .. وأخشى أن يعود الى القنطرة ويظل مشدودا الى مياه النهر كأن هناك من يجذبه اليها ..
وفى تلك اللحظة عاد « كلود » من الخارج ، فأسرعت « كريستين » اليه تعانقه كما اعتادت أن تفعل كلما رأته يعود سليما .. وكأنما كانت تخشى فى كل مرة يغادر فيها المسكن أن تراه عائدا .. محمولا ..
وجلس الصديقان يتحدثان كما كانا يفعلان فى أيام الشباب ..
وسأل « كلود » عن أصدقائه الواحد بعد الاخر .. فقال « ساندوز » متحدثا عن « فاجيرول » :
ـ لقد اشتدت الخصومة بينه وبين « نوديث » الى حد رفع الامر الى القضاء ، ان مناورات « نوديث » فى تجارة اللوحات الفنية قد عرفها الجميع .. وانهالت عليه الصحف ـ التى لم تذق طعم أمواله ـ بحملاتها حتى قضت عليه ماليا ، فاضطر الى البحث عن أمواله الضائعة فى السوق ..
وأومأ « كلود » برأسه وقال :
ـ وكان « فاجيرول » أول من لجأ اليه ليسترد ثمن القصر والاثاثات !
ـ نعم .. هذا ما حدث .. ويقال ان سلسلة المنازعات القضائية بين الاثنين سوف تلتهم كل ما تبقى لهما من أموال ..
وبعد برهة صمت ، قال « كلود » :

ـ ألم تزر صديقنا « دوبالك » مرة اخرى ؟ !

ـ كنت عنده منذ يومين .. اننى لا أجد يا صديقى «كلود» عبارات يمكننى بها التعبير عن شعورى بالاسف والحزن من أجله .. لقد أراد أن يظفر بالثروة عن طريق الزواج .. فماذا كانت النتيجة..؟! لقد أخبرتك من قبل أن زوجته تعالج من مرضها الصدرى فى احدى مصحات سويسرا ، وان والدها يعيش مع احدى عشيقاته بعد وفاة زوجته ، وأن «دوبالك» يعيش فى قصر «لاروش» الكبير بمفرده مع ابنته الصغيرة الكسيحة ، وابنه الابله الذى يبلغ من العمر عشر سنوات دون أن يعرف كيف ينطق عبارة واحدة سليمة ..

وصمت « ساندوز » برهة قبل أن يستطرد قائلا :

ـ لشد ما أرثى لحاله .. لقد زرته منذ يومين فى القصر الكبير ، فوجدته يعمل كمربية وممرضة للابن والابنة .. أما الخدم فانهم ينتهزون كل فرصة لاهانته والتندر عليه واشعاره بأنه عاطل ولا قيمة له الا أنه والد ابنة كسيحة وابن أبله من زوجة مصدورة تزوجها طمعا فى أموالها .. !

وكان «ساندوز» يسرد على « كلود » هذه الحقائق عن الصديقين اللذين ظن الناس يوما أنهما نجحا فى الحياة وحققا أهدافهما .. لقد أراد أن يقول له بأسلوب غير مباشر ، ان النجاح الذى لا يقوم على أسس سليمة قد يكون اسوأ من الفشل ..

وقال « كلود » فى ذهول :

ـ و« ما هو ديو » ؟ !..

ـ لا يزال يعمل منظفا ومرمما للتماثيل العامة والخاصة فى قصور الاغنياء ..

وضرب « كلود » كف يده اليسرى بقبضة يده اليمنى وهتف قائلا :

ـ « ماهوديو » العبقرى ؟ .. « ماهوديو » الذى كان ينبغى أن يقام له تمثال تكريما لعبقريته ؟ ! ..

وقال « ساندوز » :

ـ أما صديقنا « جورى » فانه رغم نجاحه فى الصحافة وعالم النقد ، فلا يزال يعيش مشدودا الى «ماتيلدا» وكأنها تربطه اليها

سلسلة لايستطيع منها خلاصا .. !

ـ و « شاين » ؟ ! ..

ـ افتتح حانة في مونمارتر ، وزينها باللوحات الثلاث التى فاز بها في مسابقات الصالون الفنى فى ثلاث سنوات متتالية ..

ووضع « كلود » رأسه بين يديه ، وظل صامتا برهة ، ثم قال متمتما :

ـ ان الفن سيد مستبد .. اما أن تعطيه نفسك وروحك وكل شيء واما حطمك أو أدبر عنك ..

ثم رفع رأسه وقال :

ـ وانت يا صديقى العزيز .. كيف حالك ؟ ..

فصمت « ساندوز » برهة ثم قال :

ـ لقد تركت أمي بوفاتها فراغا هائلا فى حياتى يا « كلود » .. لقد عشت حتى العام الماضي وأنا أراها فى الصباح وفى المساء ، أراها وأتلقى بركاتها ودعواتها قبل أن أخرج .. وقبل أن أنام .. ولكننى الان اشعر بالضياع ، أشعر بأن الحياة لم تعد كما كانت رغم وفاء « هنرييت » لى وتفانيها فى خدمتى ..

وبعد برهة صمت وجيزة ، استطرد يقول :

ـ ولهذا فانى ألقى بنكل ثقلى فى أعمالى الصحفية والادبية ٠٠ ولعل هذه اللحظات التى آتى لزيارتك فيها هى اللحظات الوحيدة التى أشعر فيها بأنى حر .. وبأني على قيد الحياة .. أما فيما عدا هذا ، فانى أشعر كانى ثور مشدود فى ساقية .. يدور ويدور .. ولا نهاية لدورانه ولا خلاص له الا بالموت ..

فقال « كلود » مواسيا :

ـ ولكن عزاءك يا « بيير » هذه الكتب الجميلة .. هذه الروايات الرائعة التى تصدرها بين الحين والاخر ..

فارتسمت على شفتى « ساندوز » ابتسامة ساخرة وقال :

ـ كتب وروايات ؟ .. يا لك من متفائل يا صديقى العزيز ! .. ما قيمة هذه الكتب والروايات .. ؟ ان الناس ينسونها بمجرد الفراغ من قراءتها ؟ واذا تذكروها فى مجالسهم ، فانما ليسخروا منى أو يعطفوا على .. ان رجل الشارع يا صديقى لا يجب أن يرى أحدا

أحسن منه أو اذكى أو أكثر كفاءة ومقدرة .. وهو لهذا لا يتردد عن التعريض بكل ناجح والتشهير بسمعته وانتهاز كل فرصـــة لقذفه بالحجارة وتلويثه بالطين ..

وخيم الصمت برهة بين الصديقين .. وقال « ساندوز » وهو ينهض لينصرف :

ــ انك لم تسألنى منذ شهور طوال عن أخبار « ايرما بيكو ».

فرفع « كلود » عينين مشردتى النظرات ، وقال فى غير اهتمام :

ــ ماذا بها .. ؟ ! ..

فهز « ساندوز » كتفيه وقال :

ــ لا شىء .. القصة المعروفة ، أو النهاية المنتظرة ، لقد أخذت تنحـــدر بنفس القوة التى ارتفعت بها .. الانحدار عادة أسرع من الصعود ، ويكفى أن يعرف المجتمع انها بدات تبيع مقتنياتها حتى أخذ العشاق الاثرياء يهربون منها تاركين اياها للصعاليك والمحتالين والمنحرفين .. ولن تمضى أعوام طويلة حتى تعود « ايرما » الى حيث كانت .. الى حانات مونمارتر .. ثم الارصفة .. ثم ..

وهز « ساندوز » كتفيه وقال وهو ينصرف :

ــ أرجو أن تأتى مع « كريستين » الى عشاء يوم الخميس ..

فرد « كلود » متمتما :

ــ سأحاول أن أفعل ..

وبعد انصراف « ساندوز » ظل « كلود » جالســـا شارد الفكر ، جامد الملامح ، لا يعرف أحد فيم كان يفكر .. وتنبه أخيرا على صوت « كريستين » وهى تضع العشاء أمامه .

***

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما أوت « كريستين » مع « كلود » الى فراشهما فى الغرفة الصغيرة بركن المرسم الكبير ، وكانت الليلة من ليالى نوفمبر البـــاردة ، الرياح فى الخـــارج تعصف وتنفذ من شقوق الجدران ، وتزيد المرسم والغرفة الصغيرة برودة ..

وظلت « كريستين » مؤرقة نحـــو ســـاعة وهى لا تمـــل من التفكير فى الحالة التى انتهت اليها حياتها الزوجية .. لقـــد مضت شهور طوال وهما يرقدان كل ليلة جنبا الى جنب كأنهما غريبـــان ، لا يربطهما شىء .. وكان « كلود » فى خلال هذه الشهور كالراهب

الذى هجر الدنيا بكل ما فيها من متع ومغريات ، وراح يتعبد فى محراب الفن بكل ومضة من تفكيره وبكل ذرة من قوته ..

وظلت « كريستين » مستسلمة لهذا الوضع فى كبرياء حزين ، رغم عذابها النابع من عواطفها المكبوتة .. الا أنها فى هذه الليلة كانت أشد احساسا بالحاجز الرهيب الذى قام بينها وبين أحب انسان لديها فى الوجود ..!

وظلت تغالب النوم حتى توقن أن « كلود » استغرق فى النوم بجانبها . كانت فى هذه الليلة كلها تأبى ان تنام حتى تطمئن الى استغراقه فى النوم .. كانت تخشى أن ينتهز فرصة نومها ، فينهض ، ويغادر المسكن ، ويعود الى القنطرة ويرنو الى ذلك المجهول الذى يجذبه اليه .. الى مياه السين المصبوغة بسواد الليل ..

ولكن « كلود » ظل راقدا على ظهره ، مفتوح العينين ، غير حافل بضوء السراج المنعكس عليهما ، يفكر .. ترى فيم كان يفكر؟ .. أتراه يحلق بأفكاره الى هناك .. الى القنطرة .. والى مياه السين الجارية تحت سماء مرصعة بالنجوم .!

وظل هذا السؤال حائرا ، فى ذهنها بلا اجابة حتى غلبها النوم على أمرها ..!

وبعد ساعة أو اكثر قليلا تنبهت من نومها وقد خامرها احساس مرير بالوحدة .. وبادرت وبسطت يدها تتحسس «كلود» فلم تجد الا مكانه البارد بجوارها .. أما هو فلم يكن له وجود . . !

لقد نهض «كلود» من جوارها .. وكانت بغريزتها أو بحرصها الشديد عليه ـ حتى وهى نائمة ـ قد شعرت بأنه تركها وانصرف .. وانتصبت جالسة وهى تشعر بمزيج من الفزع والبرد .. ولمحت بصيصا من الضوء فى المرسم الكبير . . أتراه هناك . . ؟ اذا كان هناك فماذا يفعل فى مثل هذا الوقت من الليل ، وفى مثل هذا الجو البارد .

لعله أراد ألا يزعجها ، فذهب الى المرسم ليقرأ كتابا يجلب به النوم الى عينيه .. ومن ثم راحت تنتظر عودته .. فلما طالت غيبته ، نهضت . وارتدت غلالتها الرقيقة ، وسارت فى خطوات متسللة الى

المرسم ، وهناك تسمرت فى مكانها حين رأت المنظر الماثل أمامها ..!

رأت «كلود» مرتديا قميصه وسراويله فقط ـ رغم البرد القارس ـ معلقا على السلم فوق اللوحة ، وقد أمسك الشمعة بيد ، والفرشاة باليد الاخرى ، وانهمك فى تلوين المرأة العارية التى تتوسط اللوحة الضخمة ..

وكان يقوم بهذا العمل فى صمت وكأنه يصلى داخل محراب مقدس، وأدركت « كريستين » معنى ما ترى .. لقد عادت الى كلود حماسته للرسم ، عادت بكل قوتها وعنفها وسيطرتها .. عادت تدفعه بكل قوة الى الرغبة فى الخلق دون أى اهتمام بالوقت او المكان ، ودون اى احتفال بما يبذله من روحه ومن جسمه لينضج فى عمله الفنى نبض الحياة ..

وتمزق قلبها من فرط التأثر والعطف والاشفاق وأخذت دموعها تنحدر بغزارة وصمت وهى واقفة ترقبه . وخطر لها فى أول الامر ان تتركه وشأنه ، كما يفعل الانسان مع شخص فاقد العقل .. ولكنها أيقنت فى تلك اللحظة أن هذه اللوحة لن تتم بأى حال .. ذلك أنه كان كلما بذل فيها من جهد وعرق ودموع ودم ، ازدادت اضطرابا وغموضا حتى اصبحت مجموعة من الالوان المختلطة المتنافرة التى لا ترمز الى معنى ، ولا تثير فى النفس غير الفزع والاشفاق .. حتى الاجزاء من خلفية اللوحة ، مثل جماعات الحمالين التى رسمها من قبل ببراعة وقوة ، صارت خليطا من الالوان والخطوط التى لا تمت الى فن الرسم بسبب .. ولكنه كان مصرا ، فى عناد غريب ، أن يفرغ من كل أجزاء اللوحة قبل أن يعيد رسم المرأة العارية على النمط الذى يريده .. النمط الذى يجعلها تبدو نابضة بالحياة ، والذى يجعلها تبهر الانفاس ، وترغم المشاهد على السجود امام روعة الفن !

ولهذا السبب كان قد ابتعد عن رسمها شهورا طوالا .. وكانت « كريستين » راضية بهذا ، لان الالم العميق الذى يحز فى قلبها ، كان يزداد ويشتد حين تراه مقبلا على رسم هذه المرأة ، متفانيا فيها، وكأنها عشيقة لا يستطيع الخلاص منها ..!

وتخدرت قدماها من فرط البرد .. واستدارت لتعود الى

فراشها ، ولكنها رأت شيئا جعلها تغير رأيها .. رأت « كلود » يغمس فرشاته في اللون الوردى .. لون البشرة ، ثم يروح يرسم جسد المرأة العارية بحماس مجنون وبأنفاس لاهثة وكأنه يضم الى صدره أجمل امرأة فى الوجود ..

وكان من فرط هيامه بعمله ، لا يشعر بقطرات الشمع المذاب وهى تتساقط ملتهبة على أصابعه ..!

وتقدمت « كريستين » وقد عصفت بنفسها ثورة الزوجة التى تضبط زوجها الحبيب يخونها تحت سقف بيتها ، فينهض متسللا من جوارها ليلقى بنفسه بين أحضان عشيقته .

نعم .. فقد راح « كلود » يعانق حبيبته ويتحسس بفرشاته ساقيها ، وجسمها ، مبهورا بانفصاله عن الواقع الى متاهات النشوة بالخيال ، صانعا من ساقيها أعمدة لمعبد ، ومن جسمها وهجا من النور الاحمر والابيض كأنه نجم هائل من نجوم السماء المتألقة الرائعة .. لقد جعل من جسمها صنما مصنوعا من الذهب والاحجار الكريمة ليوضع فى محراب للوثنيين .. وهكذا فاضت مشاعر « كريستين »فى النهاية وقررت ان تضع حدا لهذا كله ..

الا انها حين تحدثت ، كان صوتها ينم عن التوسل والرجاء .. صوت الام التى تحاول أن تغرى طفلها العنيد برؤية الصواب ..

ــ « كلود » .. ماذا تفعل ؟ هل هذا يليق .؟ أتعرض نفسك للموت فى البرد فى مثل هذه الساعة .. أرجوك ان تعود الى الفراش ..

ولم يجب عليها ، وانما انحنى وغمس فرشاته .. وبضربات قوية بارعة ، رسم على جسمها وردة كبيرة حمراء رمزا للعذرية المتفتحة التى تنتظر القطاف ..

وعادت « كريستين » تقول متوسلة :

ــ « كلود » .. أرجوك .. ارجوك أن تعود الى فراشك .. اننى احبك . وأنت تعرف مدى حبى لك .. فلماذا تفعل كل ما يحزننى ويكسر قلبى . أرجوك أن تعود الا اذا أردت أن أموت بردا وأنا فى انتظارك ..

وصاح أخيرا فى توتر عصبى دون أن يلتفت اليها :

ــ أرجوك انت أن تتركيني وشأني بحق السماء .. الا ترين أني مشــغول !..

وصمتت « كريستين » برهة ، ولــكن النار ازدادت اشــتعالا فى صدرها .. واذا هى تنفجر انفجــار العبد الاســير الذى صبر على العذاب طويلا ، حتى دفعه اليأس الى الانفجار ، ومن ثم هتفت قائلة بصوت مرتفع وبعبارات كالطلقات النارية :

ــ لا .. لن أدعك وشأنك .. نعم .. اننى لن ادعك وشأنك . لم أعد احتمل اكثر من هذا .. لسوف أسكب الآن كل ما كان يخنقنى منذ عرفتك .. انه هذا الرسم .. هــذا الرسم هو الجبــل الذى يخنقنى كل ليلة ، وكل ساعة ، ويعذبنى عذابا لا يحتمله بشر .. انه يقتلنى ببطء ·· انه يسمم حياتى كلها · وكنت منذ عرفتك أعــلم أن هذا هو ما سوف يحدث ، انه كالوحش المرعب .. وقد عشت حياتى معك فى خوف دائم منه .. ولكننى جبنت عن مصارحتك برأيى . كنت أحبك .. ولهذا أرغمت نفسى على مهادنته والتظاهر بحبه اكراما لك . هذا رغم يقينى بأنه سيقضى على فى النهاية . لشد ما تعذبت بسببه ؟.. اننى لا اذكر ليلة واحدة فى السنوات العشر الاخيرة لم أنم فيها بلا دموع . لا .. لا تقاطعنى .. اننى اشعر بالراحة الآن وأنا أسكب آلامى واحزانى ·· لقد صارت لدى القوة لان أفعــــل هــذا الآن .. عشر سنوات من الالم والــكبت والصبر والحــرمان . عشر سنوات وانا لا اعنى فى حياتك شيئا ، وكأنما لم يعد لى وجود .. عشر سنوات وانت تبعدنى عنك يوما بعد يوم حتى أصبحت أقــل شأنا من جارية ، او خادمة تقتحمها العيون .. كل هذا وهذه المخلوقة الصماء تختلسك منى ، وتقوم كالحــاجز بينى وبينك ، متعــالية على بانتصارها متشفية فى هزيمتى أمامها ·· أنك لا تستطيع أن تنكر أنها استولت عليك ، روحا وجســدا وفكرا .. سيطرت على كل ذرة فى دمك ·· فى عقلك ·· انها كالسحر الاسود ، لا تستطيع الخلاص منه ·· وها هى ذى توشك ان تبتلعك فى النهاية ·· ولكنك راض ، أليس كذلك ؟.. انها الآن زوجتك التى تحبها .. انها المرأة التى تنام معها كل ليلة ·· وليست أنا ·· ! ·· هذه البغى اللعينة !

وكانت ثورتها هذه المفاجئة قد أدهشت « كلود » وأرغمته على الانصات اليها .. الا انه بسبب استغراقة فى عملية الخلق، لم يستطع أن يفهم حديثها فهما كاملا ٠٠ بل لم يستطع أن يدرك سر ثورتها وهى تتحدث بهذا العنف !.. وكانت دهشته هذه سببا لان يزداد غضبها اشتعالا ، فتسلقت السلم ، وانتزعت الشمعة من يده ، وراحت — كما كان يفعل — تسكب ضوءها على المرأة العارية — وسط اللوحة —. وتقول هاتفة :

— أنظر .. أنظر المصير المؤلم الذى انتهيت اليه .. انها شىء بشع ٠٠ شىء رهيب ٠٠ وقد آن لك أن تدرك هذه الحقيقة ٠٠ تأملها جيدا .. أليستشيئا ينم عن القبح .. عنالجنون ! لقد انتهيت كفنان ، فلماذا تعاند الاقدار ؟ ماهو الهدف من هذا العناد ؟ اذا لم تستطع أن تكون رساما ممتازا ، فلا تنسى أن لدينا مانعيش من أجله .. لدينا حبنا .. وسعادتنا .. ومتعة الشعور بأننا نحيا

ووضعت الشمعة على حامل صغير فى السلم ، وكان « كلود » قد هبط الى الارض .. فوثبت الى جانبه ، وركعت امامه ، وتناولت يديه المتخاذلتين بين يديها وقالت فى ضراعة وتوسل :

— تذكر يا « كلود » أن لدينا حياتنا التى ينبغى أن نحياهاسعيدين ٠٠ دعنا نعش معا وننس هذا الحلم المزعج الذى استمر عشر سنوات .. انها لحماقة ان نكبر ونشيخ قبل الاوان ، وأن نتعذب وفى مقدورنا أن نسعد . لسوف نموت يوما .. فلماذا لاننعم بكل لحظة ونحن أحياء ! لنعش يا « كلود » .. ولنتبادل الحب كما كنا نفعل فى الريف .. فى بفكورت .. ألا تذكر .. اسمع يا « كلود » لسوف أخبرك بأحلامى .. انها تدور حول عودتنا الى كوخنا الجميل فى أحضان الطبيعة . سنرحل فى الصباح عن هذه المدينة الطاحنة الى مكان هادىء جميل . ولسوف ترى قدرتى على أن أجعل الحياة جديرة بأن نحياها . فما أروع ان ننسى كل شىء وكل منا الى جوار الاخر : لسوف نقضى الليالى معا فى الفراش الكبير ٠٠ وفى الصباح نتراخى فى الشمس ، ناعمين برائحة الطعام المعد للغداء ٠٠ وبعد نزهة فى النهر ، نقضى الامسيات جنبا الى جنب بجوار المدفأة ٠٠ وفى ضوء

المصباح .. بغير متاعب أو آلام .. وبلا أى شىء سوى المتعة بأننا نحيا . ماذا يمكن ان نريد من الدنيا أكثر من هذا ؟ اننى احبك .. اننى أقدسك .. اننى على استعداد ان أعيش جارية عند قدميك .. لسوف أعيش من اجلك فقط .. من أجل متعتك .. أتسمع ؟ اننى أحبك .. احبك .. أحبك .. الا يكفى هذا ؟

وسحب يديه من يديها فى شىء من الاحتجاج وقال مبتهجا :

ــ لا .. هذا لايكفى .. اننى لاأريد ان ارحل معك .. بل لا أريد أن أكون سعيدا .. ان كل ما أريد هو ان ارسم

ــ أى تريد فى الوقت نفسه أن تقتلنى وتقتل نفسك ..؟ تريد أن ننهى حياتنا فى بحر من الدموع والدمار . ان الفن فى رأيك هو الشىء الوحيد الذى له وجود . انه القوة العظمى .. انه الاله الغيور الذى سيقضى علينا .. انه الاله الذى تتعبد له .. انه سيدك .. انه قادر على أن يمسحنا من الدنيا ، ومع ذلك نقدم اليه قرابين الحمد والثناء ..!

ــ نعم .. ان الفن هو السيد .. سيدى .. حياتى بين يديه يلعب بى كما يشاء . واذا توقفت عن الرسم فسوف أموت أيضا .. ومادام الموت هو المصير فى الحالتين ، فلماذا أتوقف عن الرسم ؟.. اننى أمام الفن مسلوب الارادة ، هذه هى الحقيقة . ولا شىء يهمنى بعد ذلك .. وليذهب كل شىء الى الجحيم ..!

فوثبت واقفة وقد اندلعت نيران غضبها مرة أخرى ، وهتفت قائلة بصوت ملىء بالغضب :

ــ وماذا أعنى انا ؟.. اننى انسانة أفيض بالحياة ، أما هؤلاء النسوة اللاتى تعيش معهن ليلا ونهارا ، فانهن أموات . أوه .. لاتحاول أن تنكر .. انهن عشيقاتك . اننى أعرف كل امرأة عارية رسمتها بريشتك .. أعرف انها عشيقتك حتى وانت تبادلنى الحب .. أعرف هذا من الطريقة التى كنت تتحسس بها رسمك ، وتجلس امام المرأة المرسومة العارية الساعات الطوال تتأملها وكأنك تتعبد فى محراب جمالها . ولكنها حماقة ، وشذوذ ، وجنون . نعم ، ان المجنون وحده هو الذى يعشق الصور الجميلة ويلتع فى غرامها ويعيش فى وهم حبها . هكذا كنت قبل أن ترانى .. فلما التقيت بى ، أحببتنى

أو هكذا توهمت . ثم حدثتنى عن غرامك بالنساء العاريات التى رسمتهن وانت تضحك ضحكات الذى يمزح ، ولـكنها كانت الحقيقة .. كنت تعشق رسوماتك .. تعشق كل امرأة ترسمها بريشتك .. وهذا ما جعلك شغوفا برسم النسوة العرايا حتى فى قلب المدينة ، وفى وضح النهار . ورغم أنى أنبض بالحياة .. رغم أنى الحقيقة والواقع ، الا أنك لم تهتم بى .. كنت تفضل ان تجعل من تهاويل خيالاتك حقائق تعيش فيها . انك لن تعرف كم تألمت كل هذه السنوات ، لانك لم تكن تعرف شيئا عن المرأة النابضة بالحياة والمشاعر .. لقد عشت معك كل هذه السنوات ، ولكنك لم تستطع أن تفهمنى أو تفهم مشاعرى يوما . هل فهمت يوما أننى كنت أشعر بالغيرة القاتلة من نسائك العاريات ! وعندما كنت أقف امامك ، فى هذا المكان ، عارية تماما .. أتعرف لماذا كنت أفعل هذا ؟ كنت أريد أن أكون شجاعة وان استمد من شجاعتى القوة للانتصار على نسائك فى عرينهن .. كنت أريد ان أستردك منهن . فماذا جنيت ؟ لا شىء .. لم أستطع حتى أن أظفر منك بقبلة شكر بعد أن أقف أمامك فى البرد ساعات بعد ساعات . اه .. ما أشد العار الذى أحسست به ، وما أقسى المرارة التى كانت فى حلقى عندما كنت أراك تتجاهلنى ، بل وتحتقرنى ايضا . وقد واصلت احتقارى ، ولهذا فنحن ننام معا ، فى سرير واحد ، ليلة بعد ليلة ، وكأن الواحد منا بعيد عن الاخر .. وقد بقينا على هذه الحالة ثمانية شهور وسبعة أيام . نعم .. لقد أحصيتها يوما يوما ..

وكانت « كريستين » ـ رغم التهاب عواطفها ـ على جانب كبير من الحياء ، ولم يحدث قط ان تبادلت الحديث مع « كلود » بأسلوب مكشوف رغم قدرتها على امتاعه بكل مايمكن للمرأة العاشقة أن تمتع به حبيبها . اما الان وقد انفجرت عواطفها المكبوتة ، واندلعت نيران رغباتها المحرومة بسبب موقف زوجها ، فقد راحت تتحدث اليه بصراحة قاسية . وكانت تعلم فى قرارة نفسها أنه منع نفسه عنها ليحتفظ بكل قواه لتلك المرأة ـ غريمتها ـ النائمة فى وسط اللوحة . وكانت تذكر على وجه التحديد كيف بدأ يهجرها جنسيا .. بدأ ذلك ليلة ان رفض أن يأخذها بين ذراعيه ، وقد اعتذر قائلا : ان لديه

عملا هاما يجب أن يؤديه فى الصباح .. ثم قال لها بعد ذلك ان قلقه أثناء الليل يجعل تفكيره مشوشا مضطربا ثلاثة أيام حتى يعود اليه صفاؤه وقدرته على رؤية الاشياء بوضوح أثناء عمله الفنى . وهكذا بدآ يتباعدان . كان الاسبوع يمضى وهو مشغول بالرسم..ثم يمضى شهر وهو يستعد لاستئناف الرسم .. وتمر الاسابيع والشهور على هذا الفراق الجسدى ، حتى صارت ثمانية أشهر وسبعة أيام ..

وعادت تقول هاتفة بحرارة :

ـ كنت تدفعنى بعيدا عنك كلما شعرت أنى أريدك .. كنت تنفر منى كأنى شىء يثير الاشمئزاز ، وتهرع الى حبيبتك هذه .. الى هذه اللاشىء .. الى قطعة القماش والزيت والالوان .. أنظر اليها .. أنظر اليها الان .. تأمل هذه المرأة التى تعشقها .. تأمل أى وحش صنعته فى لحظات جنونك . هل هناك فى الدنيا امرأة بهذا الشكل ؟ هل هناك امرأة لها فخذان يلمعان كالذهب ، وفى موضع ظاهر فى جسدها وردة حمراء متفتحة الاوراق ؟! استيقظ .. افتح عينيك .. واهبط الى الارض من عالم أوهامك ، واعلم أنك ضعت !

واطاع « كلود » ـ آليا ـ أمرها ، ووقف يتأمل ما صنعته يداه . وكانت الشمعة ، فوق السلم ، تسكب ضوءها على جسد المرأة العارية فبدا كأنه صورة معلقة فوق محراب .. اما كل شىء حولها فكان غارقا فى الظلام

ولاح عليه فى تلك اللحظة كأنه يفيق من حلم .. وتسمر فى مكانه معقود اللسان وهو يتأمل هذه المرأة التى رسمها بيديه .. من مكانه البعيد هذا .. لقد أبى أن يصدق أنه هو الذى رسم امرأة تشبه تمثالا .. تشبه وثنا لديانة مجهولة .. تشبه صنما مصنوعا من المرمر والذهب والياقوت . أيمكن ان يكون هو الذى رسمه ـ بلا وعى ـ هذا الرمز الرهيب للجنس فى أبشع صوره ؟.. أيمكن ان يكون هو الذى حول الجسم البشرى الى تمثال بارد من الذهب والياقوت ، رغم كل محاولاته لينفخ فيه نبض الحياة ! لقد أفزعه مارآى .. ومن ثم وقف مبهوتا فاغر الفم يرتعد وهو يدرك أنه صنع شيئا أبعد مايكون عن الواقع ، بينما كان فى هذه السنوات كلها يحاول

أن يقترب من الواقع بقدر الامكان .. لقد راوغته الحقيقة وانفلتت من بين يديه رغم مابذله من جهد ليسيطر عليها

وقالت « كريستين » بلهجة المنتصر :

ــ أترى الان .. أرأيت حقيقة ماوصلت اليه ؟

وغمغم في هدوء قائلا :

ــ ويحى !.. ماذا جنت يداى .. أمن المستحيل ان يخلق الفنان ؟ هل تعجز الايدى البشرية عن صنع شيء ينبض بالحياة ؟

وتخاذلت قواه ، وبدا كأنه يوشك على الانهيار ، فأخذته « كريستين » بين ذراعيها بحنان وقالت في همس واشفاق :

ــ لماذا تعذب نفسك بهذه الحماقات ؟.. لماذا تشقى وانا معك ؟ لقد جعلتنى أقف امامك لترسم .. أردت أن تصنع نسخة مصورة من جسدى .. فلماذا ؟ من المؤكد اننى أفضل من جميع هذه الصور المنسوخة التى صنعتها بيديك .. انها فى أحسن الاحوال قبيحة ، وباردة ، وميتة كالجثث . أما أنا فانى أنبض بالحياة .. وانى أحبك .. وأريدك .. الا تفهم ؟ لماذا تجعلنى أذكرك بهذا كله دائما !.. الم تشعر بحبى لك ؟.. وبلهفتى الى قربك .. والى لمسات يديك . اننى أحبك .. وانى نابضة بالحياة من اجلك .

ثم تركت غلالتها الرقيقة تسقط من كتفيها ، وضغطت بصدرها على صدره ، وكأنما تريد ان تذيب كل قطرة من دمها فى دمه . وكانت عواطفها كأنثى قد التهبت حتى بلغت الذروة ، وحتى أصبحت هى كتلة مشتعلة من العاطفة ، أو كأن مشاعرها المكبوتة طيلة هذه الاشهر ، قد انطلقت من قمقمها كالمارد المسعور الذى قرر ان يدمر كل شيء اذا لم يرتو ويهدأ ...

كان جسمها كله متوهجا ، وعيناها تلمعان ، وشعرها الذهبى متهدلا على كتفيها ، وشفتاها مرفوعتين اليه حمراوتين كالدم ..

ولكن « كلود » ــ رغم هذا كله ــ صاح وهو يحاول التخلص منها :

ــ دعينى .. اننى أتعس من ان افعل ماتريدين ..

فقالت بحرارة :

ــ لعلك تظن أننى كبرت ..؟ لقد قلت لى هذا يوما ، وظننت أنك

على حق . ومن ثم كنت أمعن النظر فى جسدى وانا اقف امامك باحثة عن التجاعيد أو البشرة المتهدلة ، فلم أجد .. اننى لم اكبر .. اننى فى أوج الشباب ، فى الثالثة والثلاثين من عمرى .. فى تمـــام النضوج ..

ثم تشبثت به وعادت تقول :

ــ انظر .. انظر بنفسك !...

وتراجعت عنه قليلا ، ثم قالت :

ــ قارن الان بينى وبين هذه المرأة الرهيبة الدميمة ! اننى أكثر شبابا منها .. يمكنك أن تكسوها بالذهب والياقوت ، ولـكنها لاتعدو ان تكون شيئا ميتا .. اما انا ، فلازلت كما كنت فى الثامنة عشرة من عمرى .. لازلت محتفظة بكل صباى وشبابى لانى أحبك ..!

وكانت فى الواقع تبدو رمزا حيا للشباب والجمال .. وكـانت بشرتها الوردية تلمع فى ضوء الشمعة الخافت ، وصدرها نافـــر النهدين من فرط اشتعال العاطفة فى جسمها ..

وأخذته بين ذراعيها مرة أخرى ، وراحت تضمه بكل قوتهـــا كأنما تبحث عن قلبه لتستحوذ عليه . وراحت تفرقه فى طـوفان من القبلات .. فأخـــذت تقبل وجهه ، ولحيته ، وشـــفتيه .. حتى الهواء المحيط به ، وشرعت تهمس له بأنفاس لاهثة متقطعـــة النبرات :

ــ خذنى بين ذراعيك .. ألست بشرا .. ألا تريـــد أن تخرج من عالم أوهامك .. تعال معى وسوف أجعلك تؤمن بأن الحياة جديرة بأن نحياها .. تعال الى الفراش لتتعلم أن الحيــــاة يمكن أن تكون متعة طويلة الاجل .. عد الى حبك لى يا « كلود » ..عد الى ما كنـا عليه .. اننى أخشى أن أفقدك .. وان الحياة بدونك لن تكون لهـا معنى .. « كلود » .. « كلود » .. ألا تسـمعنى .. لشد ما كنت أخشى أن تلبى نداء المجهول كلما رأيتك واقفا على القنطرة ! .. لماذا كل هذا العذاب يا حبيبى ؟ لماذا لا نعيش معا .. سعيدين .. ناعمين!

وانهارت كل مقاومة فى جسم « كلود » فاذا هو يضمها الى صدره وينخرط فى بكاء حار ويقول :

ــ نعم .. نعم .. كثيرا ما أردت أن ألبى نداء المجهول لولا رغبتى

فى اتمام هذه اللوحة ٠٠ انها هى التى منعتنى من أن أقتل نفسى لاستريح ٠ والآن كيف أستطيع أن أستمر فى الحياة اذا لم يكن لدى ما أعمله وأعيش من أجله ٠ ؟

ــ يمكنك أن تستمر فى الحياة لانى أحبك ! ٠٠

ــ آه ٠٠ ولكنك لن تستطيعى أن تحبيننى بما فيه الكفاية ٠٠ اننى أعرف هذا لانى أعرف نفسى ٠٠ ان الشىء الذى يجعل الحياة جديرة بأن نحياها ، هو العمل ، هو الهدف الذى يجعل الانسان ينسى كل شىء فى سبيل الحصول عليه ، وقد ثبت انك ــ رغم كل حبك ــ قد عجزت عن أن تنسينى عملى ٠٠ فنى ٠٠ ولن تستطيعى أن تفعلى يوما ٠٠ !

فهتفت قائلة بحماس :

ــ بل أستطيع ٠٠ أستطيع ٠٠ وسوف أثبت لك هذا ٠٠ وهذا ما سوف أفعله ٠٠ سآخذك بين ذراعى هكذا ٠٠ وسأكون أنا أنت ٠٠ سأكون أنفاسك ٠٠ سأكون جسدك ٠٠ سأكون دمك ٠٠

وانهزم « كلود » هذه المرة أمام حرارتها ، واندلعت نيران العاطفة فى جسده ، فظمر وجهه فى صدرها ، وراح يلتهم جسدها بقبلاته المحمومة وهو يغمغم قائلا :

ــ انقذينى اذن .. اذا أردت ألا أبتعد عنك ، املأى كأس حياتى بالسعادة .. ابتكرى لى من مباهج الحياة ما ينسينى كل شىء .. اجعلينى عبدا لك . آه .. دعينى أعش على شذى جسدك الوردى .. دعينى أحبك وأفنى فى الحب معك .. آه لو استطعت . !!

وكانت اجابتها صيحة انتصار :

ــ أصبحت لى أخيرا .. كنت أعلم أنى سأنتصر فى النهاية . أنا الان الوحيدة فى حياتك .. أنا النابضة بالحياة معك .. أما هى ، فقد ماتت وانتهى أمرها .. !

وانتزعته بعيدا عن اللوحة البغيضة ، وسارت به وهى ترسل ضحكات الانتصار الى الفراش ٠٠

وارتعدت ذبالة الشمعة فوق الحامل ٠٠ وانطفأت ٠٠ وأعلنت الساعة الثالثة صباحا .. ولكن « كريستين » لم تحفل بالظلام أو بالبرد ، وانما سارت مع « كلود » تتلمس الطريق الى الفراش

حيث ألقت بنفسـها فوقه ، وحيث راح الاثنان فى غيبـوبة من الحب لم يشعرا بمثلها حتى فى أولى حياتهما الزوجية ..

لقد ارتد اليهما الماضى كله بنبض الحب .. ولـكنه ارتد أقوى وأعنف مما كان الاف المرات .. عاد ليحملهـا بكل قواه الى عالم النشوة والسـعادة ، وكان الظلام حولهما يتوهج وهما يرتفعان على أجنحة اللهيب عاليا .. عاليا ، فوق هـذه الارض ، الى عالم من النور والنار .. حتى « كلود » لم يستطع أن يمنع نفسه من الهتـاف عاليا وهو يشعر أنه قد ترك آلامه ومتاعبه وانطلق الى عالم جديد سعيد ..

وهنا أخذت « كريستين » توالى انتصـارتها ، فقالت له وهى ترسل ضحكة مليئة برنين العاطفة :

— قل ان الرسم لعبة يتسلى بها الحمقى ؟! ..

فردد القول وراءها :

— ان الرسم لعبة يتسلى بها الحمقى !! ..

— قل انك لن ترسم أبدا بعد ذلك ..

— لن أرسم أبدا بعد ذلك .. !!

— وانك تحتقر هذا الرسم ..

— واحتقر هذا الرسم !!

— وانك سوف تحرق كل لوحاتك اكراما لى ..

— وسوف احرق كل لوحاتى اكراما لك !!

— وقل انه لن يكون فى حياتك أحد غيرى ، وان سـعادة الحياة تتركز فى الحب والوفاء والاخلاص ..

فلما كرر لها هذه العبارة ، قالت :

— وقل انك ستبصق على « تلك » الاخرى .. تلك البغى التى رسمتها على القماش .. ابصق .. ابصق .. دعنى اسمعك ..

فقال « كلود » وهو يبصق بعيدا :

— اننى أبصق عليها .. ولم يعد لى فى الدنيا أحد غيرك .

وعندئذ أخذت تضـمه اليها بقوة رهيبة حتى تعذر عليه التقاط أنفاسه . انه الان لها .. وانهما ليعودان مرة أخرى الى التحليق فى عالم النشوة والسعادة . ثلاث مرات وهما يرتفعـان الى السـماء

الى ذروة البهجة ، وان « كلود » ليقول لنفســــه : حقا هذه هى السعادة .. فكيف غفل عنها كل هذه السنوات ! كيف لم يخطر بباله أن هذا اللون من السعادة يمكن أن يكون الوسيلة لكل عذاب نفسى !!

لقد نجا .. نجا أخيرا من عبودية الفن .. انقذته « كريستين » بحبها واخلاصها وحرارة عواطفها ، وشباب جسدها الوردى ..



كان الفجر قد بدأ يتسلل الى المدينة عندما استسلمت «كريستين» أخيرا للنوم العميق ، متشبثة بانتصارها ، ناعمة بتحقيق رغباتها ، سعيدة بارتواء عواطفها مطمئنة الى ذراعى « كلود » .. وكانت هى فى استغراقها فى النوم ، متشبثة به ، كأنما تخشى أن يفلت منها بعد كل هذا المجهود الذى بذلته لاسترداده !

وراحت انفاسها تتردد بانتظام ، والابتسامة ترفرف على شفتيها، ورأسها مستريح على صدره .. وكان « كلود » فى بادىء الامر ، قد أغمض عينيه متراخى الجسم بعد الجهد العنيف الذى بذله ، ولكنه سرعان ما عاد وفتحهما فى الظلام .. لقد استعصى عليه النوم رغم احساسه بأن كل عصب فى جسمه يصرخ فى طلب الراحة والاسترخاء

ان عقله بدأ يفيق من غشاوة العاطفة ، ونشوة الحب ، ان الافكار لتصطرعه فيه قوية مختلطة حتى رأى أطياف الفجر تتســـلل الى الغرفة فى استحياء .. وعندئذ خيل اليه انه يسمع من ينادى عليه من داخل المرسم ..وأعاد هذا النداء الىذهنه المضطرب كل الحقائق التى نســـيها فى غمرة العاطفة الملتهبة .. وارتسم العـــــذاب على وجهه وهو يحس كأنه شاخ فجأة حتى بلغ أرذل العمر .. وهو يحس احساس الرجل الذى انتهت حياته ، ولم يبق أمامه الا انتظار الموت ..

وشعر ب « كريستين » كأنهـــا ثقل من الرصاص ، يكاد يخنق أنفاسه ، ومرة أخرى سمع ذلك النداء ينساب الى ســـمعه من المرسم .. وكان فى هذه المرة أكثر وضوحا وأشد سيطرة . واستقر رأيه أخيرا على شىء .. فهذه هى النهاية .. انه لا يستطيع أن يحتمل أكثر مما فعل .. ان الحياة ليست جديرة بأن يحياها مادام كل شىء فيها قد صار هباء .. وضياعا ..

وبدأ فى حذر شديد يحاول الهبوط من الفراش .. حتى اذا سمع

« النداء » مرة ثالثة ، سار مهرعا الى المرسم وهو يهمس قائلا :

ــ هاأنذا .. لبيك يا اله الفن ..

***

وفتحت كريستين عينيهـــا ، وظلت برهة كأنها تحاول أن تتذكر ماحدث ، ثم تلفتت حولها فى ذهول .. ولم تجد «كلود » بجانبها .. وخيل اليها أنه نهض ليغتسل .. ولكن احساسا غامضا دفع بهـا الى الهبوط من الفراش ، وارتداء ملابسها على عجل .. ثم الخروج الى المرسم ..

وتسمرت فى مكانها حين رأت المنظر الرهيب الذى طالعهـــا .. وحاولت أن تصرخ ، فانعقد لسانها فى حلقها .. ولم تستطع أن تحول نظراتها الزائغة عن « كلود » .. « كلود » الذى كان معلقا من عنقه فى انشوط حبل مشدود الى احدى دعائم اللوحة الرهيبة !

وأخيرا اندفعت نحو الجسد المعلق الذى بدا لها كأنه فى عناق أبدى مع المرأة العارية .. مع الوثن الرهيب .. ثم أطلقت صيحة عالية ، وسقطت عند اسفل اللوحة مغشيا عليها ..

وقال « بوجراند » ل « ساندوز » وهما عائدان بعد أن شـــاهدا « كلود » وهو يوضع فى مثواه الاخير :

ــ لقد استراح هذا المسكين بعد أن تمزقت الشـــعرة التى كانت تفصل ــ فى عقله ــ بين العبقرية والجنون ..؟

وأومأ « ساندوز » برأسه وقال :

ــ نعم .. رحمه الله ..

ــ ترى ماذا حدث لـ « كريستين » ؟.. وما مصيرها ..؟

فقال « ساندوز » بحزن :

ــ انها فى المستشفى الان فاقدة الذاكرة .. وكأنما تأبى بعقلهـــا الباطن أن تعيش لحظة فى عالم ليس فيه « كلود » .. وقد اتفقت مع « هنرييت » زوجتى على أن نجعلها أختا لنا .. وان نرعاها مدى الحياة

ــ واللوحة الرهيبة التى كان « كلود » يريد أن يجعلها أسطورة فى عالم الفن ؟

ــ أحرقتها ..!

انتهت

اشترك فى روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــــة : السيد نخلة سكاف

جــــــدة : السيد هاشم بن على نحاس
ص ٠ ب ٤٩٣

البحــــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد
صندوق البريد رقم ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Março, 994,
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRAZIL

ســنغافورة : Ahmed Bin Mohammed Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205
SINGAPORE

انجــــلترا : The Arabic Publications Distribution
Bureau,
7, Bishopthorpe Road
London S.E. 26,
ENGLAND



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر أغسطس 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الرواية

يصور لنا أميل زولا بأسلوبه الساحر الفياض حياة الوسط الفنى والفنانين فى باريس فى اواخر القرن الماضى .. وبأسلوبه الزاخر بعناصر التشويق ، وببصيرته النافذة الى أعماق النفس البشرية .. يروى قصة حب عنيف نشأ بين فنان عبقري وبين فتاة بريئة طاهرة التقى بها مصادفة فى ليلة عاصفة ومع تشابك الاحداث وتطورها ، نرى أروع قصة لعلاقة يمكن ان تقوم بين فنان متقلب الاهواء ، وبين فتاة لها مبادؤها ومثلها العليا وقدرتها الفائقة على تكريس نفسها للحبيب كما نرى صورة خالدة للزوجة التى تغار من فن زوجها ومن ((عشيقاته)) العاريات المرسومات بريشته ..





المؤلف

* يعد « زولا » أمام المدرسة الطبيعية فى الاداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من اشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » .. التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١